الفصل الثاني

تجديد الهوية التاريخية العراقية

- العقدة الايرانية والهوية العراقية الممزقة بين العروبة والتفريس
- التفريس باسم العروبة
- تأثير العقدة الايرانية في الحاضر العراقي
- ملاحق معلوماتية عن تاريخ العلاقات بين العراق وايران

العقدة الإيرانية والهوية العراقية الممزقة

بين العروبة والتفريس

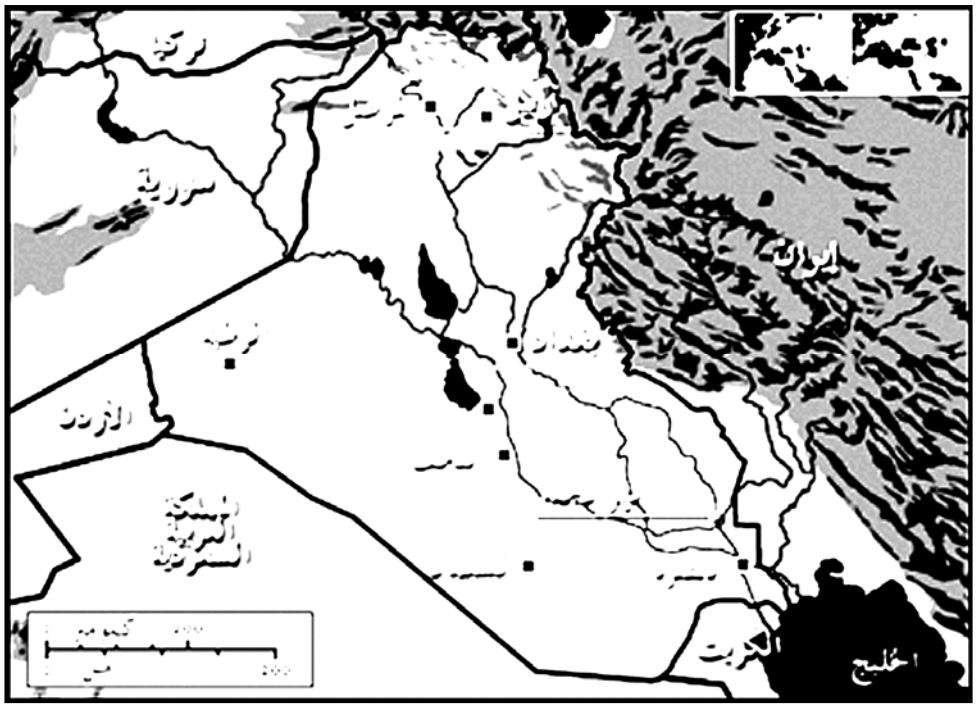

(حدود العراق)

طالما ردد الناس في بلداننا بأننا نحن «العرب» متشبثون أكثر من اللازم بماضينا وتاريخنا. لكن الحقيقة عكس ذلك تماماً لأننا عندما نقارن حالنا مع الغربيين سنكتشف أننا أقل الشعوب تشبثاً بتاريخنا، لأننا الأقل معرفة ودراية بهذا التاريخ. نحن من بين الشعوب التي وافقت عن حسن نية أن تتآمر مع الآخرين ضد تاريخها لتقطيعه وتشويهه ومنح الجزء الأعظم منه لشعوب أخرى من فرس ورومان والمتبقي في مجاهل النسيان. بل يمكن التأكيد ــ وسندلل على كلامنا هذا لاحقاً ــ بأن السبب الأول والأكبر لضعفنا وتمزقنا وتوتر حاضرنا والتناقض المتطرف بين تياراتنا يكمن في ضعف هويتنا التاريخية وتمزقها وتقطيع أوصالها من قبل مؤرخينا المعاصرين. إن الشعوب مثل الأفراد من لا يتعرف ويعترف ويتصالح مع ماضيه فإنه سيعيش متغرباً منفصماً عن حاضره.

إن الذي دفعنا للبحث في هذا الموضوع، إطلاعنا على الأجزاء الثلاثة من كتاب الباحث الإيراني «الشهيد آية الله مرتضى المطهري» والمعنون (الإسلام وإيران)[1]. يبدو أن هذا الكتاب يعكس وجهة نظر ايران الرسمية والدينية والشعبية بخصوص دور الإيرانيين في الحضارة الاسلامية، وبالذات دور العناصر «الفارسية» في صنع الحضارة العربية الاسلامية في العراق. الترجمة العربية للكتاب صدرت من طهران في أواخر الثمانينات وقامت بتوزيعه السفارات الايرانية في الخارج على الجماعات العربية المقربة إليها.

عبر الأجزاء الثلاثة من (الاسلام وايران) جهد (آية الله المطهري) لتأكيد فكرة أن معظم الابداعات الحضارية العراقية «قبل الاسلام» و«بعد الاسلام» ماهي إلا جزء من الحضارة الإيرانية الفارسية بالاستناد الى الفرضية التالية : أن جميع سكان العراق الأصليين من غير «العرب الأقحاح» هم تلقائياً من الفرس، ما دام العراق كان خاضعاً لايران خلال عدة قرون قبل الفتح العربي الاسلامي! كأن المسلمين عندما فتحوا العراق وجدوه «أرضاً بلا بشر»، إلا من بعض الجاليات الايرانية من ناحية وبعض الأعراب القاطنين في الحيرة من ناحية أخرى.. هذا هو كل ما تبقى من شعب النهرين بعد أربعة آلاف عام من الدول والامبراطوريات والحضارة الواحدة المستمرة مع اختلاف التسميات: السومرية الأكدية البابلية الاشورية الآرامية. إذن عندما وصل العرب عمروا أرض النهرين «القاحلة من السكان!»، ومع الفتح الاسلامي بدء تاريخنا كعراقيين ناطقين بالعربية! خلاصة هذا، ان كل انسان وكل فكرة أو نشاط أوانتاج لا تثبت اصالته العربية وقدومه المؤكد من الجزيرة العربية فإنه تلقائياً ومن دون أي جدل «أعجمي فارسي»! سيكتشف القارىء معنا بعد قليل كيف أن هذا «التفريس» والتقطيع لتاريخ العراق هو الجزء الأهم من عملية التقطيع التي تعرضت لها تواريخ البلدان العربية بصورة عامة. وكيف أن هذا التمزيق لماضي العراق كان السبب الأول والأكبر لتدمير حاضر العراق ومنع تكوين «هوية وطنية موحدة».

إن اختيارنا الحديث لهذا الكتاب، لأن كاتبه باحث معاصر ورجل دين معروف ومعترف به من قبل النظام الاسلامي في ايران. من خلال هذا الكتاب النموذج يمكننا أن نكشف عن أمرين متداخلين:

ـ رغم إيمان النخبة الايرانية بالعقيدة الاسلامية ودعوة الأخوة والمساواة بين الشعوب الاسلامية، إلا أن هذا لم يلغ «الأعماق القومية» الفارسية الايرانية التي تبلغ حد التعصب القومي والاعتقاد بأفضلية الايرانيين على الشعوب الاسلامية الأخرى. ان هذا الموقف الاسلامي

الايراني يلتقي بالنتيجة مع الموقف القومي العلماني (الشاهنشاهي) الذي يتميز بتقييمه السلبي لدور الاسلام والمسلمين في تاريخ ايران واحتقاره المعلن والواضح للعرب والاسلام. صحيح أن الاسلاميين الايرانيين اختلفوا مع القوميين العلمانيين بأنهم قيموا ايجابياً الفتح العربي ودور الاسلام في نهضة ايران، إلا أنهم بنفس الوقت تبنوا الغرور القومي والتعصب العرقي المغطى بالاسلام. ها هو المطهري يقول: « إن أكثر الآثار الاسلامية سواء في العلوم الدينية أوغيرها كانت من مساعي المسلمين الايرانيين، وهذا هو فخر وميزة المسلمين الايرانيين على العهد الاسلامي» (ج3 ص 62). وطيلة الأجزاء الثلاثة جهد الباحث الى تأكيد هذه الفكرة، ولكن على حساب ا لعراق والعراقيين الذين سُرق دورهم بكل تعسف وظلم.

ـ الأمر الثاني الذي يكشفه لنا هذا الكتاب، هو الأمر الأكثر قسوة ومرارة : أن «التعصب القومي الايراني» بشكليه العلماني والاسلامي يلتقي ويستفيد كثيراً من «التعصب القومي العربي» رغم الخلاف وحتى العداء المعلن بين الموقفين القوميين العربي والايراني، إلا أنهما بتطرفهما وتعصبهما اتفقا على خلع الهوية الوطنية عن التاريخ العراقي و«تفريس» حضارته وابداعاته باحتساب الجزء الأعظم من ناسه ومبدعيه على ايران. ولنا في هذا أمثلة لا تحصى سوف نورد العديد منها لاحقاً.

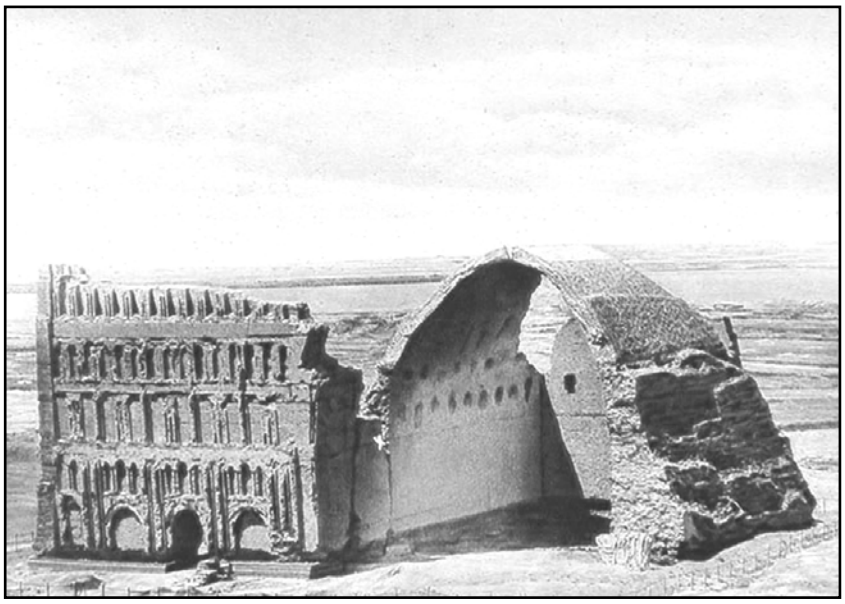

طاق كسرى، قصر الملك الساساني في مدينة(المدائن) العراقية الآرامية
لاحظ رغم الهيمنة الفارسية، الا ان الهندسة وفن البناء العراقي هي التي كانت سائدة!

معنى الموالي والاعاجم

يتوجب التأكيد أن عملية «التفريس» هذه ليست قديمة أبداً، بل بدأت فقط منذ القرن الماضي تحت تأثير المفاهيم القومية والطائفية للدولة العثمانية. منذ ذلك الوقت شرعت النخب العراقية والعربية «المعثمنة» باعادة كتابة تاريخنا بطريقة أدت الى قلب معاني جميع المصادر التاريخية. قبل أن نتحدث عن أسباب عملية «التفريس» هذه ونورد الأمثلة العديدة عليها، نوضح أولاً الطريقة (السحرية) التي تمت بها. نؤكد على أهمية هذه الطريقة لأنها من القوة والثبات والتكرار بحيث أننا جميعاً عراقيين وعرباً اقتنعنا منذ أجيال بحقيقة هذا «التفريس» وتقبلناه وهضمناه وعشناه بصورة يومية وتلقائية أشبه بمن يتقبل حقيقة أن قدميه مقيدتان بالسلاسل، فيتعود الزحف كأمر طبيعي وموروث من التاريخ!

هذه الطريقة السحرية والبسيطة جداً تتلخص بالتالي : أن القارىء لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية في المشرق وفي العراق خصوصاً، أي منذ الفتح حتى سقوط بغداد التي دامت ستة قرون؛ يلاحظ في جميع المصادر التاريخية التي كتبت خلال هذه القرون الستة ثمة «مفردتان» تتكرران عبر جميع الصفحات. هاتان المفردتان أشبه بالمفاتيح أي تلاعب بهما أو سوء فهم لمعانيهما سوف يتغير فحوى السرد التاريخي بأكمله، والمفردتان هما : «الموالي، العجم».

الذي حدث، أن النخب العربية «المتعثمنة» التي كتبت تاريخنا في العصر الحديث لسبب سوف نفصله لاحقاً، قررت بوعي ومن دون وعي اعتبار هاتين المفردتين بمعنى واحد وحيد هو : «الفرس الإيرانيون». هكذا نزلت الصاعقة السحرية وبقدرة قادر تغيرت معاني جميع المصادر التاريخية العربية القديمة وأعيدت قراءتها وتفسيرها بحيث أصبحت كلها لا تتحدث إلا عن «الفرس الإيرانيين». أي موضوع أو حدث أو دين أو مذهب أو ثورة أو قصيدة أو حكاية، تتعلق بـ «الموالي أو العجم»، فهي تلقائياً ومن دون شك تعني «الفرس الايرانيين»!

نوضح باختصار معنى هاتين المفردتين :

ـ الموالي : وهم سكان البلاد المفتوحة الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام وقاموا بموالاة قبيلة عربية أو شريف عربي. تسمية (مولى، موالي) تعني الفرد والجماعة التي وضعت نفسها بموالاة وحماية قبيلة عربية قوية أو قائد أو شريف عربي ذي جاه وسلطان. وقد شاع هذا الأمر

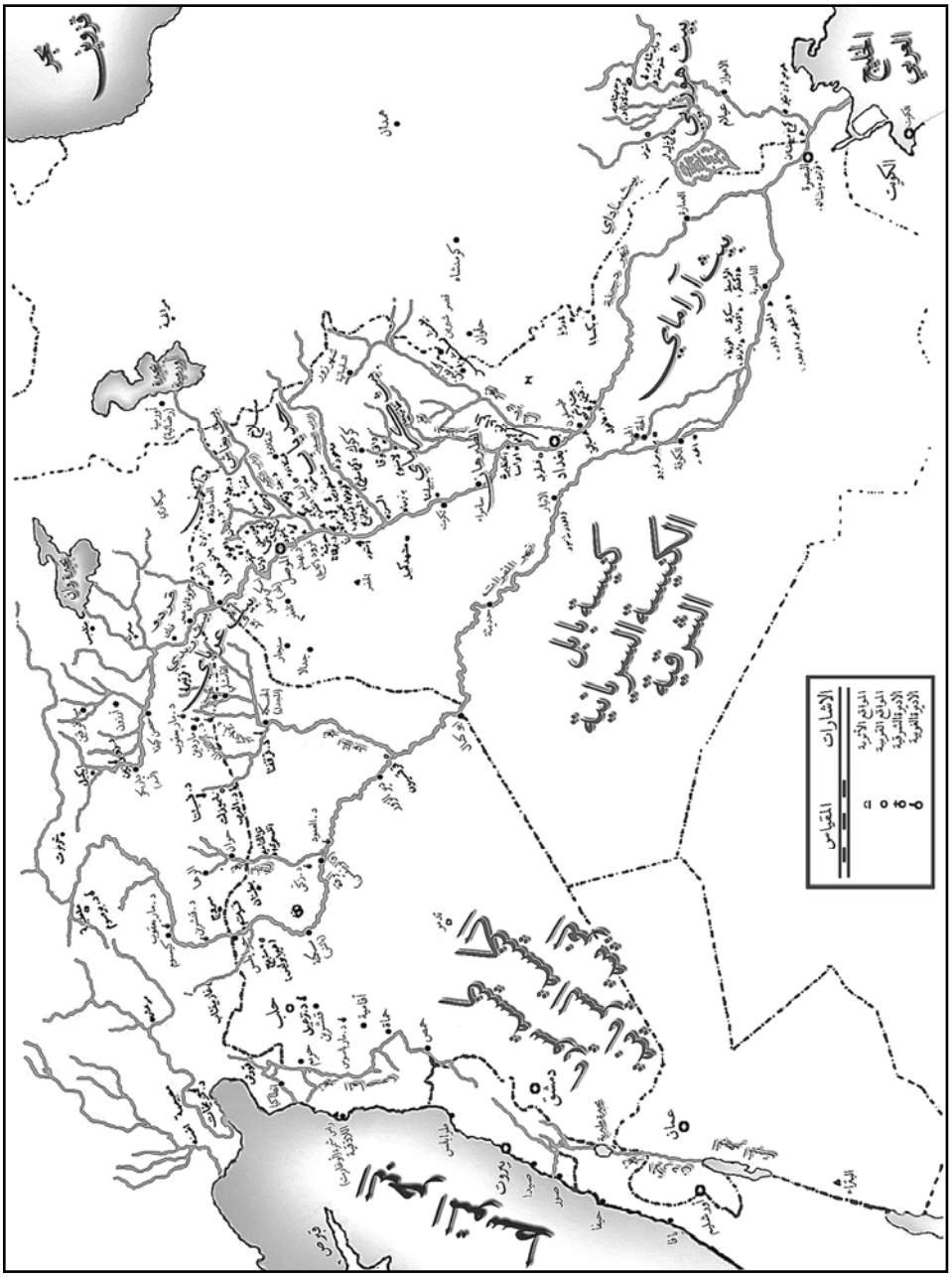

خارطة العراق المسيحي قبل الفتح العربي وتقسيم المناطق حسب الأسقفيات النسطورية(السريانية الشرقية) . أما بلاد الشام (سوريا الطبيعية) فكانت بأغلبيتها تابعة للكنيسة اليعقوبية(السريانية الغربية) .

المصدر : تاريخ الكنيسة السريانية – البيرابونا – ج1

خصوصاً في العراق عندما بدأت الأغلبية الساحقة من العراقيين المسيحيين الآراميين (السريان) باعتناق الاسلام و «موالاة» احدى القبائل العربية أو أحد قادة الجيوش الكبار المسلمين والذين أصبحوا بمعظمهم ملاكين كباراً للأراضي والقرى العراقية. أطلق العرب على فلاحي العراق تسمية نبط «وهم ينزلون سواد العراق.. يسكنون العراق وأربابها» ما يقول (ابن منظور)[2]، وشملت تسمية نبط أيضاً آراميّ الشام. ويلاحظ في المصادر التاريخية أن تسميات عديدة أطلقت على سكان العراق الأصليين المسيحيين الناطقين بالآرامية: (سريان، كلدان، نبط، أهل بابل، آراميون، نصارى، نساطرة). وهي تسميات متأتية من التنوع المذهبي والمناطقي وتمايز اللهجات بين أهل الريف والمدينة وبين شمال النهرين (الجزيرة) وجنوبه (البطحاء). لكن الجميع كانوا ناطقين باللغة السريانية (المشتقة من الآرامية) كلغة فصحى للكتابة وللطقوس الدينية. انظر مثلاً كيف يتحدث (ابن خلدون) عن أهل العراق: «وأما وجود السحر (علم التنجيم) في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير»[3].

يذكر (البلاذري) ان عمر بن الخطاب قسم أرض السواد (العراق دون الموصل) بين المقاتلين المسلمين، فوجد أن كل مقاتل عربي سوف يكون مسؤولاً عن أراضي ثلاثة فلاحين عراقيين. معنى هذا أن كل مقاتل يقابله ثلاثة فلاحين مع عوائلهم. ويضيف (البلاذري) أيضاً، أن عثمان بن حنيف ختم على رقاب (550) الف علج[4] (وهي تسمية أطلقت تهكماً على الفلاح العراقي). يعني هذا في أرض السواد وحدها كان هناك أكثر من نصف مليون فلاح عراقي، واذا احتسبنا معهم عوائلهم بالاضافة الى سكان المدن والأهوار والبوادي فإنهم يضاهون عدة ملايين نسمة. وتتفق التقديرات التاريخية على أن عدد سكان العراق عند الفتح بحدود سبعة ملايين. (لاحظ الجدول الاحصائي التاريخي في الملحق نهاية الفصل).

مع انتشار الاسلام واستقرار المقاتلين العرب في الحواضر وتملكهم للقرى والأراضي ساد لدى أبناء القرى والعشائر العراقية الآرامية تقليد الموالاة وحمل أسماء وألقاب عربية. الذي ساعد على هذا التعريب هو التقارب الثقافي واللغوي بين الآراميين والعرب. وذكر لنا (الجاحظ) في كتابه (البيان والتبيين) أنه حتى القرن الهجري الثالث ثمة الكثير من أهل الريف العراقي لم يتقنوا العربية بعد[5]. ويمكننا ان نتخذ من حياة (الجاحظ) مثالاً واضحاً على عملية «الموالاة» التي عاشها أهل العراق. من المعروف ان (الجاحظ) لم يكن عربياً بل هو عراقي بصري من موالي (كنانة) وقدحمل جده (محبوب البصري) لقب (الكناني) لأنه كان يشتغل

جمالاً لدى أحد الملاكين العرب اسمه (أبو قلمس عمرو بن قلع الكناني)[6]. ويبدو أن مؤرخينا المعاصرين قد أعفوا (الجاحظ) من تهمة «الفارسية» رغم أنه من (الموالي) بسبب دفاعه عن العرب في رسائله وكتبه!

انتشر نظام الموالاة أولاً بين العراقيين القاطنين في الحواضر الجديدة التي استقرت فيها الجيوش العربية مثل الكوفة والبصرة والموصل. يقول المؤرخ الدوري : «ان جمهور الموالي في العراق كانوا من النبط. ومع ذلك فان الاشارة الى الموالي النبط نادرة، ويبدو أن ذلك يعود لصلتهم بالعرب في الأصول والثقافة... يقال أن دواد الطائي تكلم أمام الحجاج. فقال له الحجاج : الكلام كلام عربي والوجه وجه نبطي... بعد ثورة الأشعث ضد الأمويين، تخوفت السلطة من الموالي المقيمين في الكوفة، وقيل عنهم: إنما الموالي علوج، وإنما أتي بهم من القرى فقراهم أولى بهم..»[7]. ويؤكد لنا (الدوري) أن هؤلاء الفلاحين كانوا يتكلمون الآرامية. يحدثنا (دلو) عن هذه الحالة : «في خلافة عثمان تردت أوضاع الموالي الاجتماعية والاقتصادية وزادت حالتهم سوءاً وذلك عندما أرادت الأرستقراطية العربية أن تجعل من السواد «بستاناً لقريش». فانفلت أقاربه الحكام في انتزاع أراضي الموالي وأرزاقهم واستغلال جهودهم دون رحمة مما دفعهم الى الانحياز الى جانب (علي) الذي أدخلهم في صفوف جيشه، إذ كان منهم فيه ثمانية آلاف. وساوى بين الموالي والعرب في العطاء وكتب الى عماله يأمرهم بحسن معاملتهم»[8] وساءت أكثر حالة العراقيين زمن الأمويين وبالذات فترة (الحجاج) الذي فرض عليهم الجزية رغم دخولهم الاسلام. نتيجة ذلك قام العراقيون بعدة ثورات معروفة بالاشتراك مع الجاليات العربية المقيمة التي عانت هي أيضاً من اضطهاد الأمويين: ثورة الكوفة بقيادة المولى أبو علي الكوفي. ثورة عبد الرحمن بن الأشعث التي اشترك فيها من موالي الكوفة والبصرة أكثر من مئة ألف. وعلى أثر فشل الثورة أمر الحجاج بإرجاع الموالي الى قراهم وختم (بالنار) على يد كل مولى اسم قريته لكي لا يغادرها الى المدينة. ثم شارك الموالي بثورات الحارث بن سريج وابي مريم ونافع بن الأزرق وعبيد الله الماحوز وقطري بن الفجاءة، ثم ثورة المختار الثقفي الذي احتوى جيشه على عشرين الف مولى عراقي. وطبعاً أن الحركات الشيعية والعباسية كانت بأغلبية ساحقة من الموالي العراقيين بالاضافة الى الجاليات العربية[9].

بسبب هذا الظلم الاقتصادي والاجتماعي واستمرار فرض الجزية على العراقيين رغم اسلامهم واغتصاب أراضيهم من قبل القادة والأمراء العرب، وبالتالي استمرار ثوراتهم التي

كانت تنتهي بالفشل وزيادة القمع والظلم فقد توسعت الحركات المعارضة للهيمنة الأموية ولسيطرة الأقلية القبائلية العسكرية العربية. انتشرت الأفكار التي تدعو الى «المساواة» بين العرب وغير العرب والتي تجلت بالتيارات التالية : مذهبياً بالحركة الشيعية، وسياسياً بالحركة العباسية، وثقافياً بالحركة الشعوبية (أهل التسوية). جميع هذه الحركات كانت عراقية أصيلة، لأنها نشأت ونشطت في العراق ومؤسسيها وقادتها من العراق، لكنها فيما بعد انتشرت وأثرت في الفرس والتركستان(*) وغيرهم من الجماعات المضطهدة. يقول (ابن قتيبة) شاتماً المثقفين الشعوبيين: «هم أوباش النبط وأبناء أجراء القرى»[10]، ويعني (أبناء الفلاحين) ولم يقل عنهم (أبناء الفرس) كما يحلو لمؤرخينا المعاصرين أن يقولوا عنهم.

كل هذه الحركات كانت تطالب برفع الظلم وبالمساواة الانسانية بين الأقلية العربية العسكرية الحاكمة والأغلبية العراقية (آراميين وعرب) المحتقرة والمضطهدة. ولم تكن هذه الحركات موجهة ضد العرب كقوم، بدليل أن معظم قادتها من أصول عربية مثل أئمة الشيعة وبني العباس.

إن حركات العراقيين كانت موجهة ضد العنصريين العرب من ملاكين وأمراء البدو والعسكر الذين كانوا يقسون على الفلاحين والحضر ويستخفون من طريقة عيشهم. يقول أحد الأعراب متهكماً من الموالي : «يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا»[11]. وتؤكد لنا مصادر التاريخ كيف أن الكثير من المتعصبين العرب حاولوا المستحيل للوقوف بوجه التيار الكاسح للتزاوج بين الجاليات العربية والسكان الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام، وقد أطلقت تسمية «هجين» على الذين يولدون من هذا التزاوج. يقول الرياشي[12] :

إن أولاد الســـــراري　　كثروا يا رب فينـــا

رب أدخلني بـــــلاداً　　لا أرى فيها هجينا

لكن الوقوف بوجه تيار الامتزاج والتزاوج بين العرب والآراميين في العراق وسوريا خصوصاً كان من المستحيل بحيث شمل أخيراً حتى الخلفاء الأمويين والقادة العسكريين ومعهم المتعصبين من دعاة الحفاظ على نقاء الدم العربي. ومع الزمن ذابت الأقلية العربية (بدنياً وعرقياً) في الأغلبية من السكان الأصليين. لكن رغم ذوبان العرب عرقياً إلا أنهم بفضل السلطة والدين الاسلامي تمكنوا من فرض اللغة العربية وجعل السكان الأصليين

* فضلنا أستخدام تسمية «تركستان» لسكان آسيا الوسطى، بدلاً من تسمية «أتراك» التي أصبحت تعني سكان دولة تركيا الحالية .

يحملون أسماء وألقاب القبائل العربية المحاربة المسيطرة وكذلك أسماء أشراف العرب من الملاكين والقادة العسكريين. ولهذا فإننا في العراق نعتقد فعلاً وحقيقة بأن عشائرنا عربية صميمة قادمة من الحجاز واليمن لأنها جميعها تدعي الانتساب للقبائل العربية الكبرى مثل : (طي وبني تميم وخزاعة وقريش وربيعة وبني هاشم والعلويين)، بينما الحقيقة أن هذه ألقاب (ولاءات) فُرضت على أسلافنا العراقيين بعد الفتح الاسلامي وهذا الأمر حدث في البلدان العربية الأخرى مثل القبط في مصر والبربر في شمال افريقيا والنوبة في السودان.

المشكلة التي عقدت موضوع «الموالي» بالنسبة لمؤرخينا المعاصرين أن تسمية «موالي» تشمل أيضاً الأقلية من الأسرى والعبيد التابعين لإحدى القبائل العربية أو الأشراف العرب. وهذا الأمر شجع على وضع الأغلبية في سلة الأقلية، وبالتالي اعتبار جميع الموالي من الأسرى والمماليك والعبيد الأجانب. طبعاً «الأجنبي» هو «الأعجمي»، إذن بالنسبة لمؤرخينا المعاصرين لا بد أن يكون هذا «الأعجمي» فارسياً حسب الفهم القومي «المعثمن»!

ـ الاعاجم: بالنسبة لمفردة «أعجمي، أعاجم» فهي في جميع المراجع اللغوية تعني كل من جهل اللغة العربية. أعجمي رديف لكلمة أجنبي. بل إن العرب أطلقوها حتى على أقسام أخرى من العرب. يقول شاعر من قبائل الأزد اليمانية: «واستعربوا ضلة وهم عجم»[13]. وحسب ابن منظور في (لسان العرب) للتفريق بين العرب العاربة والعرب المستعربة: «المستعربة هم عجم دخلوا في العرب»[14] لهذا فإن المصادر التاريخية العربية تتحدث عن الأعاجم لتشمل كل الجماعات والشعوب غير الناطقة بالعربية وكما يعبر عن ذلك (ابن خلدون): «وهذا عام في جميع أصناف أهل اللسان الأعجمي من الفرس والروم والترك والبربر والفرنج وسائر من ليس من أهل اللسان العربي» (ص 1055).

لسوء الحظ، أنه منذ قرون وحتى الآن قد ساد لدى العراقيين تسمية أعجمي بمعنى فارسي ايراني. على هذا الأساس فإن الأمر انعكس على قراءة المصادر العربية القديمة من قبل مؤرخينا المعاصرين وتم اعتبار أي حديث أو ذكر للأعاجم فإنه يعني الفرس الإيرانيين.

على هذا الأساس قد تم «تفريس» كل سكان العراق الأصليين. بل إن مؤرخينا المعاصرين اضطروا للاستعانة بشعوب أخرى من أجل انجاز عملية التضخيم الأسطوري لدور «الفرس» وتقزيم دور «العراقيين». جميع سكان المناطق الآسيوية المحاذية لايران من تركستان وسند (باكستان) وأفغان وأكراد وأرمن وقفقاس تم اعتبارهم «فرس» لأنهم (أعاجم) أو لأنهم (موالي)!

لكي تتكامل المصيبة ويصل هذا التشويه الى ذروته فان الفهم القومي العرقي العربي قد فرض نفسه بحيث تم نزع الهوية الوطنية العراقية حتى عن المواطنين الأصليين الذين لم يعتبروا «موالي»، ونعني المواطنين الذين لم يدخلوا الاسلام: مسيحيين ويهود وصابئة ومانوية، والذين أطلق عليهم تسمية «أهل الذمة». بما أن هؤلاء ليسوا «عرب أقحاح» بالاضافة الى أنهم غير مسلمين فانهم تلقائياً حُسِبوا على «الأعاجم» وهم أجانب يمكن بسهولة اعتبارهم بصورة أو أخرى على الفرس! نعم إن مؤرخينا اعتبروا الكثير من «أهل الذمة» العراقيين من الفرس الإيرانيين. لقد وصل الأمر الى حد تحريف المعلومات التاريخية بصورة سافرة تدعو للاستغراب. اسمعوا مثلاً مؤرخنا القومي «شكري فيصل»، يتحدث في كتابه الموسوعي «المجتمعات الاسلامية» عن اختلاط الفرس بالعرب في العراق تحت عنوان: «الزواج بالكتابيات الفارسيات»، يستشهد بالمؤرخ الطبري الذي يقول: «تزوج المهاجرون والأنصار في أهل السواد يعني في نساء أهل الكتابين منهم»[15]. وبكل حماسة قومية يفسر مؤرخنا (نساء أهل الكتابين) بمعنى النساء الفارسيات! بينما أي شخص منا مهما كان اطلاعه محدوداً يعرف جيداً أن «الكتابين» هما «الانجيل والتوراة» و«أهل الكتابين» هم «النصارى واليهود». ثم ان الطبري يتحدث عن «أهل السواد» وأرض السواد هي العراق. طيب كيف حصل ان «الفرس» صاروا هم أهل السواد وهم النصارى واليهود؟ على هذا المنوال يستمر مؤرخنا بتفريس 90٪ من سكان العراق ومبدعيه وحضارته بحماسة لا تكل. وسوف نورد لاحقاً العديد من الأمثلة.

الانتماء القبائلي

هكذا إذن تكاملت المؤامرة وتم تمزيق التاريخ العراقي وحُسِبَ القسم الأعظم من ناسه ومبدعيه على «الأعاجم الفرس الإيرانيين». لم يبق للعراق غير أولئك الذين ثبت أصلهم (العربي القح). لكن المشكلة أنه حتى هؤلاء لم يُحتسبوا على العراق بل تم احتسابهم بكل بساطة على أصولهم القبائلية، فيقال (شيباني، أزدي، طائي)، وبالتالي يتم ارجاعهم تلقائياً الى نجد أو الحجاز أو اليمن، ثم الى (الأمة العربية) جمعاء من دون أية إشارة لأصلهم العراقي!

الآن لنعد الى كاتبنا (آية الله المطهري) حيث سنسجل عدداً من نماذج «التفريس» الكلي الذي قام به للحضارة العراقية في العصور الاسلامية. سوف نستشهد أيضاً ببعض النماذج لإسهامات المؤرخين العرب في عملية «التفريس» هذه ولنبين مدى التداخل بين الموقفين القوميين العربي والإيراني.

من أهم الأسس التي اعتمدت عليها الرؤية القومية العرقية هي الازدواجية الظالمة في التعامل مع أصول الشخصيات العراقية والكيل بمكيالين مختلفين: بالنسبة للعراق فانه مغيب كوطن وكشعب، بل هناك القاب وانتماءات قبائلية يمانية وحجازية ليس فيها أي ذكر للانتماء العراقي. أما بالنسبة لايران فانها حاضرة كوطن ثابت ومقدس فوق الدين والقبيلة واللغة، بل انها تعامل كأمبراطورية (عرقية قومية أزلية) إذ يُحتَسبْ عليها جميع أبناء البلدان التي كانت تابعة سابقاً للامبراطورية الفارسية الساسانية: العراق وأفغانستان وتركستان. هذا الأمر أشبه باعتبار شعوب اليونان وأرمينيا وسوريا والعراق مع مبدعيهم جزءاً من «الأتراك» لأنهم خضعوا للدولة العثمانية لعدة قرون! هذه بعض نماذج «التفريس» المأخوذة من الجزء الثالث من الكتاب :

ـ خلال حديثه عن فقهاء المذاهب السنية الأربعة : (مالك بن أنس، الشافعي، أحمد بن حنبل، أبو حنيفة النعمان)، يقول الكاتب : «وعلى هذا فليس من هؤلاء الأئمة الأربعة ايراني في الأصل إلا أبا حنيفة، والآخرون عدناني وقحطاني وشيباني» (ص 104). هكذا اذن وبكل بساطة يتم الحديث عن الانتماء لايران كوطن وقومية تسري دماؤها حتى في الذين لم يعيشوا فيها أبداً لا هم ولا أسلافهم. وعلى العكس تماماً بالنسبة للعراق أرضاً وشعباً وحضارة يتم تغييبه من التاريخ ويُحسَبْ أبناؤه على انتماءاتهم القبائلية السلالية الأسطورية المفترضة. السبب واضح جداً، لأن الإمام (أبو حنيفة) الذي تم اعتباره إيرانياً على أساس أصل جده (زوطي) المفترض من سبي كابول (الطريف ان كابول في أفغانستان وليس في ايران. ولا ندري إن كان أهل كابول وافغانستان يرضون بأن يحسبهم مؤرخونا على ايران؟).

أبو حنيفة هذا الذي تم اعتباره فارسياً، اسمه (النعمان بن ثابت الكوفي) ولد في الكوفة، وأبوه (ثابت) ولد وعاش في الكوفة وتزوج من امرأة كوفية ومات في الكوفة، والنعمان نفسه كذلك ولد وعاش وتزوج من امرأة كوفية وعاش فيها وأبدع وتكلم باللغة العربية ولم يعرف لغة أخرى أبداً، ولم يسافر خارج العراق ولم يشاهد لا ايران ولا غيرها، وأمضى حياته يكافح وينشر دعوته في العراق حتى أطلق على مذهبه «مذهب أهل العراق»[16]، ومات سجيناً في بغداد ولا زال قبره فيها (الامام المعظم) ومذهبه حالياً هو المذهب الرسمي لسنة العراق. طيب كيف حصل وان اعتبر ايرانياً؟! أية طاقة خارقة لهذا الأصل الايراني الذي يتجاوز بجبروته كل حدود المنطق والعقل. وأي حظ تعس لهذا العراق البائس الذي يُنسَبْ

أبناؤه ومبدعوه لايران بكل تعسف وصفاقة. تصوروا أن الكاتب (عبد الرحمن الشرقاوي) يتحدث عن أبي حنيفة قائلاً: «ولد أبو حنيفة بالكوفة سنة 80 هـ من أسرة فارسية وسمي النعمان تيمناً بأحد ملوك الفرس[17]. هكذا يصل الجهل والتجاهل بكاتبنا بحيث أنه يعتبر اسم «النعمان» (أحد ملوك الفرس). فهو أولاً تجاهل بعناد أن اسم (النعمان) (عربي قح)[*] وليس له أية علاقة بالفرس. ويكفي مطالعة أي معجم لمعرفة ذلك. ثم ان أي قارىء للتاريخ يعرف أن (الملك النعمان) الشهير لم يكن (أحد ملوك الفرس) بل كان أميراً عراقياً مسيحياً في منطقة الحيرة (قبل الاسلام). والحيرة نفسها هي منطقة الكوفة التي ينتسب اليها أبو حنيفة. اذن فإن (أبا حنيفة) حينما اختار له اهله اسم (النعمان) ليس تيمناً بملوك الفرس بل تيمناً بملوك الحيرة العراقيين العرب!

تبقى الحقيقة الوحيدة من كل هذه التخريجات العجائبية لتبرير «تفريس» (الامام أبي حنيفة) ان هناك سبباً واحداً وحيداً: ان (أبا حنيفة) حتى وإن كان (بيولوجياً وعرقياً!) ثلثيه (عراقي) من ناحية أمه وأم أبيه الكوفيتين، وأنه حضارياً وتربوياً وانسانياً هو عراقي 100٪، فانه ما دام ليس من أب عربي خالص فانه يكفي لنفي كل انتمائه للعراق حتى لو عاش فيه هو وأسلافه خلال ألف عام. لقد تم اعتباره (فارسياً ايرانياً) بصورة تلقائية ومطلقة!

أما فقهاء المذاهب الثلاثة الذين اختصرهم (المطهري) بانتماءاتهم القبلية المفترضة دون أية إشارة لأوطانهم، فإن (الإمام ابن حنبل الشيباني) ولد وعاش وتعلم وأبدع ومات في بغداد في العراق ومن أبوين عراقيين. إذن فإن كان (شيبانياً عربياً)، فهو قبل كل شيء عراقي الوطن والهوية. أما (مالك بن أنس)، فانه من أهل المدينة ولد وعاش ومات فيها، فهو عربي لكنه قبل كل شيء حجازي الوطن والهوية. أما (الإمام الشافعي) فهو فلسطيني من غزة، انتقلت به أمه الى مكة وهناك عاش وتعلم وأبدع، ثم انتقل الى بغداد فالقاهرة حيث مات ودفن. اذن فهو فلسطيني الأصل حجازي المنشأ والوطن[18].

هكذا تعامل مؤرخونا المعاصرون مع الشخصيات المعروفة، فيردوها الى أصولها القبائلية دون أية اشارة للأوطان باستثناء ايران فهي الوطن والقبيلة والقومية والأمة! يقول مطهري مرة أخرى: «أبو عبيدة ايراني ألأصل، وأبو زيد خزرجي، وأما الأصمعي فباهلي» (ص110)، علماً أن الثلاثة هم مبدعون عراقيون مولداً وتجربة وثقافة وتزاوجاً ونسلاً.

---

* بالحقيقة ان أسم (نعمان) هو آرامي اطلق على آله الخصب (بعل تموز) ومنه أطلق على ورود الربيع (شقائق النعمان). وهي من جذر (نعم) بمعنى (جميل).

النقاء العرقي للشخصيات الفارسية

قبل أن نورد نماذج أكثر على عملية «التفريس» التي قام بها المؤرخ (المطهري) وكذلك المؤرخون العرب المعاصرون، نود أولاً أن نحاجج أصحاب هذه الطروحات القومية العرقية ونكشف عن مدى هزالة هذه الطروحات ومدى الظلم الذي حاق بالعراق ماضياً وحاضراً. لنستعين بمثال من ايران نفسها :

ـ إن الإمام الخميني قائد الثورة الاسلامية الايرانية، لا أحد يشكك بحقيقة انتمائه لإيران، اجتماعياً وسياسياً وحضارياً، انه ايراني بكل معنى الكلمة. لكن لو اعتمدنا المنطق «القومي السلالي البيولوجي» الذي طبّق بصورة تعسفية على شخصيات التاريخ العراقي، فان الإمام الخميني ليس ايرانياً أبداً. فهو أولاً من جد اسمه (أحمد الهندي) ولد ونشأ في كشمير الهندية وقد هاجر الى النجف في أوائل القرن الماضي ثم تزوج من ايرانية وأقام في ايران في بلدة (خمين). ولا زال شقيق الامام الخميني الأكبر يسمى (نور الدين الهندي)[19]. هل يحق لنا على أساس الفهم القومي السلالي اعتبار الخميني هندياً كشميرياً وليس ايرانياً؟ ثم إذا أردنا التطرف أكثر في الفهم القومي، فاننا يمكن اعتبار الامام الخميني عربياً عراقياً لأنه يحمل لقب (الموسوي): أي من الذين يعتقدون أنهم من أحفاد (الامام موسى الكاظم حفيد الامام علي). و(الامام الكاظم) عاش ومات في العراق ولا زال قبره مزاراً شيعياً مقدساً معروفاً في بغداد. وعلى هذا المنوال يمكن احتساب جميع أبناء فئة «السادة» العلويين في ايران على العرب والعراق باعتبارهم من أحفاد الامام علي بن أبي طالب الهاشمي القريشي الحجازي، وقد هاجر أسلافهم الى ايران من العراق ولبنان والبحرين والإحساء، ومنهم عوائل مشهورة ومتنفذة في المجتمع والدولة في ايران (وقد يكون المطهري نفسه واحداً من هؤلاء السادة!). إن تاريخ ايران الاسلامي مليء بالشخصيات التاريخية التي كانت تدعي وتفتخر بالنسب العلوي العربي، مثل العائلة الصفوية مؤسسة الدولة الصفوية (القرن 16 م) التي فرضت التشيع بالقوة على ايران وبالاستعانة بفقهاء العراق والاحساء والبحرين ولبنان[20]. ومن الشخصيات العلوية الشهيرة أيضاً الملكة (فرح ديبا) زوجة الشاه المنفية الآن في مصر[21] وعدد هائل من العوائل والشخصيات المعروفة في تاريخ ايران منذ قرون وحتى الآن!

من مظاهر اللاعدل أيضاً في سرد التاريخ من قبل مؤرخينا القوميين انهم ركزوا بصورة مبالغة جداً على وجود الفرس في العراق، لكنهم لم يعطوا أهمية لوجود العراقيين (والعرب)

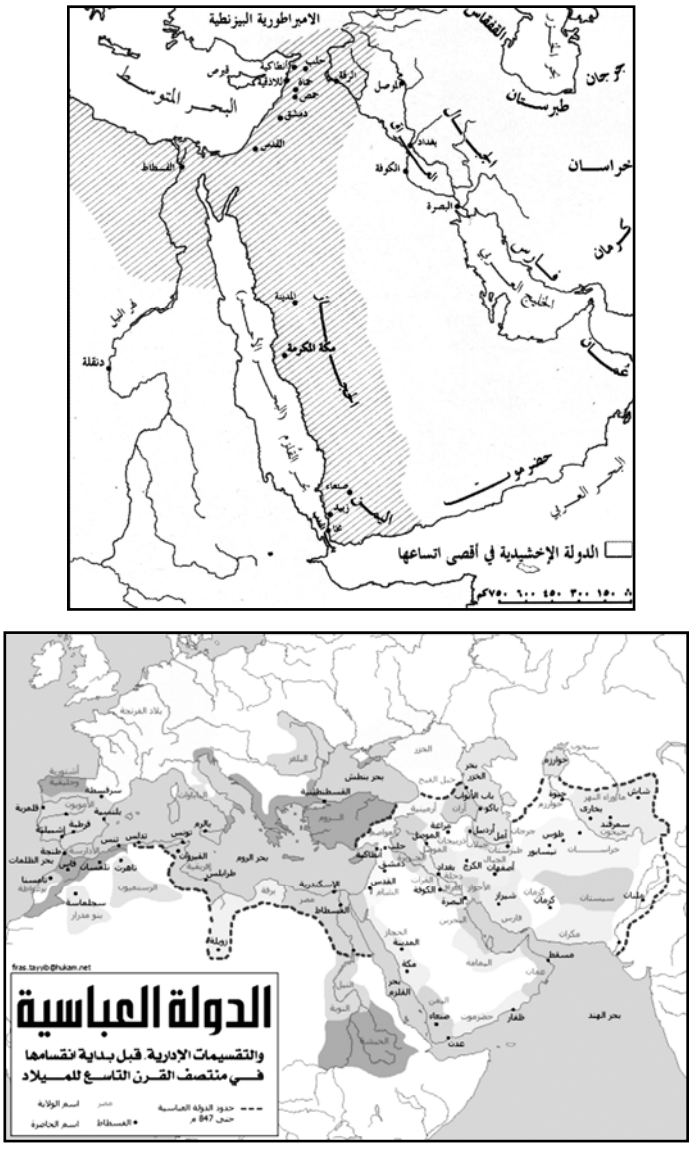

خارطة الامبراطورية العباسية واقاليم ايران وافغانستان

في هاتين الخارطتين تتبين المناطق الآسيوية التابعة للخلافة العباسية علماً بأن إيران في هذه الفترة ليس لها وجود ككيان موحد بل منقسمة الى عدة أقاليم مثل (فارس) وطبرستان وأذربيجان واقليم الجبال أما خراسان فكانت تشتمل على اجزاء من أيران وأفغانستان الحالية واقليم الأحواز فكان أقليماً خاصاً ليس له أية علاقة بأيران وهو أقرب الى العراق بحكم اشتراكه بالسهل والطبيعة وكذلك التكوين السكاني والحضاري الذي كان ولازال نفس الموجود في جنوب العراق .

المتميز في ايران بالاضافة الى تركستان وافغانستان وبلاد السند. العلامة (ماسينيون) يحدثنا بإسهاب عن نشاط جاليات أهل البصرة والكوفة في خراسان بعد الفتح ويعدد مدن الاستيطان المعروفة: بلخ ومرو وهراة وسيراف ونيسابور ويشير الى دور العراقيين الحضاري والسياسي في ايران حيث أسسوا مدينة (قم) التي أصبحت منذ الفتح (مركز) التشيع العراقي الذي خلق (التشيع) الايراني فيما بعد. وكذلك دورهم في بناء مدينة (البيزا أو البيضاء) التي أنجبت سيبويه والحلاج[22].

يذكر (الطبري) أنه كان في خراسان اربعون الفاً من مقاتلة البصرة وسبعة آلاف من الكوفة ومعهم سبعة آلاف من موالي العراق. ويذكر (البلاذري) ان والي خراسان «حول معه من أهل المصرين (الكوفة البصرة) زهاء خمسين الفاً بعيالاتهم وأسكنهم دون النهر ـ أي خراسان ـ»[23]. وكل هؤلاء العراقيين اعتبروا خراسانيين شكلوا النخبة (المسلمة) التي قادت الحياة الثقافية والدينية والسياسية والعسكرية في خراسان. وهؤلاء الخراسانيون (العراقيون) هم الذين ساهموا بنجاح الثورة العباسية وعادوا الى العراق وشاركوا ببناء الدولة في بغداد. يلاحظ مثلاً أن الكثير من هؤلاء الرجال يحملون ألقاباً خراسانية وعربية في نفس الوقت: قحطبة الجرجاني (الطائي)، الفضل الطوسي (التميمي)، جديع الكرماني (الأزدي)، عبد المالك الجرجاني (العتكي)[24].

إذن، مشكلة الانتماء والنقاء «القومي السلالي» لا تخص العراق وحده بل تخص ايران بدرجة أكثر حدة، خصوصاً اذا علمنا أن الفرس في ايران ظلوا طيلة التاريخ أقلية عرقية فرضت نفسها على باقي شعوب ايران من خلال اللغة فقط. من المعروف أن الناطقين بالفارسية كلغة أم في إيران أقل من 50٪، وهناك أكثر من الثلث ناطقون بلهجات تركستانية مختلفة بالاضافة الى الأكراد والعرب والبالوش، لكن الفارسية تبقى اللغة الرسمية والثقافية لهذه الفئات اللغوية. ثم ان جميع السلالات التي حكمت ايران منذ عشرة قرون وحتى القرن الحالي كانت سلالات تركستانية: (السلاجقة، الايلخانيون، التركمان، الصفويون، القاجاريون)[25]، ولكن في ظل هؤلاء سادت اللغة الفارسية الحديثة ونشأ الأدب الايراني منذ الفردوسي وعمر الخيام وحتى الآن، وان الكثير من مبدعي ايران ما كانوا من الفرس بل من أصول «عرقية» مختلفة منهم

التركستاني، ومنهم العربي، ولكن الجميع تبنوا اللغة الفارسية وأبدعوا بها وتم اعتبارهم ايرانيين فرس.

لماذا اذن لا ينطبق هذا المقياس على العراق أيضاً، ولماذا تم التعامل مع شخصياته المبدعة على أساس مدى انتمائهم «العربي القح»، وتم التغاضي عن حقيقة انتمائهم لأرض العراق ومجتمعه وحضارته ولغته الوطنية (العربية)؟

إن الحديث عن المبدعين في ظل الحضارة العربية الاسلامية يجب أن لا يستند على الأصل العرقي السلالي المفترض إنما على أساس أرض الميلاد والمنشأ والثقافة. للأسف نحن في العراق وفي عموم البلدان العربية وبسبب الفهم العرقي العروبي لا زلنا مترددين بقبول هذه الحقيقة الانسانية العالمية ونشعر بالخجل من عدم ثبات «الأصل العربي القح» للمبدع أو للمواطن. وطالما سمعنا وقرأنا الكثير عن الأسف أو التشفي لأن أغلب مبدعي الحضارة العربية لم يكونوا من أصول عربية متناسين حقيقة أن الأغلبية الساحقة من شعوبنا (الناطقة بالعربية) ليست من أصول عربية بالمعنى السلالي العرقي، بل هي من أصول وطنية أصيلة مستوطنة منذ سحيق التاريخ وقد دخلت الاسلام واستعربت وأصبحت شعوباً عربية. لقد تم تناسي حقيقة أن الانتماء للوطن وحضارته هو الأساس وليس الانتماء لهذه القومية البيولوجية الأسطورية المفترضة. بسبب الفهم القومي الضيق تم اعتبار جميع المبدعين الذين ينتمون لأصل وطني (مثل الآراميين والأكراد والتركمان والأرمن واليهود وغيرهم في العراق خصوصاً) على (الأعاجم والفرس)، ما داموا ليسوا عرباً أصلاء ولا ينحدرون مباشرة من عدنان وقحطان! ولنا مثال (صلاح الدين الأيوبي) الذي يُحسب دائماً على أصله «الكردي» من دون الاهتمام بحقيقة مولده هو وإبيه في العراق ثم نشأته وحياته في سوريا[26].

إن هذا الفهم القومي للتاريخ يتغذى دائماً بمفاهيم قومية عرقية ترسخت ونمت منذ أجيال وصارت جزءاً من تكوين الثقافة العربية حتى بتياراتها الأممية والعلمانية والعلمية. بل غدا من شبه المستحيل الحديث بأي موضوع اجتماعي تاريخي دون القبول ضمناً بهذه الطروحات العرقية شئنا أم أبينا، فإننا تعودنا على قبول المبدأ القومي التالي: إن طريق الانتماء للوطن لا بد أن يمر بالجزيرة العربية![*]

* إننا نذكر وسوف نكرر في كل الكتاب، بأننا لسنا ضد شعوب الجزيرة العربية، وإننا نعتز بأهل اليمن ونجد والحجاز والخليج العربي. إننا فقط ضد الفهم التعسفي العروبي العرقي للتاريخ.

وزارة الثقافة العراقية أصدرت عام 1978 كتاباً من ثلاثة مجلدات (للدكتور ناجي معروف)، يحاول فيه أن يثبت «عروبة» العلماء المنسوبين الى «العجم». بل إن مؤرخنا «الدكتور» جهد لإثبات «عروبة» حتى الجماعات الأخرى مثل «الأكراد». تراه يستند الى (ابن حوقل والمسعودي والمقريزي) ليقول : «إن الأكراد ينتسبون الى كرد بن مرد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن..»[27] وبالتالي فان أصل جدهم من اليمن، نعم هذا «دكتور» وأفكاره «العلمية جداً» تُدرس في الجامعة ويؤمن بها الكثير من المثقفين والسياسيين في العراق. يكفي أن نثبت أن الأكراد أصلهم «عرب من اليمن» حتى تنحل مشكلتهم في «العراق»! لأن الانتماء لأرض العراق ولشعب العراق ولتاريخ العراق لا بد أن يمر لا محالة، بالانتماء لليمن أو للحجاز (مع تقديرنا لأهل اليمن والحجاز الذين لا نعتقد بأنهم بحاجة لأن يكون الأكراد منهم فلديهم ما يكفي من المشاكل).

الانتماء للوطن

يجب التوكيد أننا لا نبتغي أبداً إنكار دور العناصر الايرانية في صنع الحضارة العربية الاسلامية، ولكننا ضد المغالاة العنصرية من الجانبين العروبي والايراني. اننا ندعو لتبني المنطق الوطني الانساني الذي يعتمد وطن الميلاد والمنشأ والثقافة من أجل الاتفاق على تحديد الانتماء الوطني للشخصية التاريخية. بهذا المنطق الانساني سوف نمنح لكل وطن حقه وحصته من الشخصيات التي ساهمت بصنع الحضارة في ظل الامبراطورية العربية الاسلامية.

على هذا الأساس، فإن مبدعين مثل (ابن العميد) و (الصاحب بن عباد) و(الطغرائي) و(الغزالي) هم ايرانيون دون جدل رغم تبنيهم للغة العربية ومعيشتهم في بعض الفترات في العراق والمنطقة العربية. هم ايرانيون لأنهم ولدوا وعاشوا في مناطق هي حالياً جزء من ايران وهذا يكفي لتأكيد انتمائهم الوطني حتى وإن كان بعضهم أصله عربي عراقي مثل (يحيى التميمي) الذي ولد وعاش في نيسابور واشتهر بأنه شيخ خراسان وإمام زمانه[28].

بالحقيقة ان هوس «التفريس» لم يشمل الشخصيات العراقية وحدها بل كل الأعاجم وخصوصاً من مناطق التركستان (آسيا الوسطى)، وهي حالياً تشكل جمهوريات (أوزبكستان وكازاخستان وتركمانستان وطاجكستان وقرغيزيا) وكلها ناطقة بلغات تركستانية متقاربة عدا طاجكستان التي تتقاسمها الفارسية والتركستانية. بلدان تركستان هذه فيها مدن معروفة جداً في التاريخ الاسلامي وأنجبت الكثير من الشخصيات المعروفة التي اعتبرت ظلماً من قبل

مؤرخينا على أنها فارسية : في كازاخستان مدينة (فاراب) ومنها أبو نصر الفارابي. في أوزبكستان مدينة (بخارى) ومنها الإمام البخاري وكذلك ابن سينا، ومدينة (خوارزم) ومنها العلامة الخوارزمي والعلامة البيروني والإمام الزمخشري، ومدينة (ترمذ) ومنها الكثير من العلماء الملقبين بالترمذي. أما تركمانستان فإنها ضمت أيضاً عدة مدن معروفة ومهمة مثل (مرو وآمل وبيهق وسرخس ونسا) وكل واحدة من هذه المدن أنجبت العديد من الشخصيات التاريخية المعروفة من أشهرهم الإمام المؤرخ الطبري والإمام السرخسي.

يمكن أيضاً ذكر بلاد أفغانستان التي تختلط فيها اللغات التركستانية والآرية. هذه البلاد انهضم حقها من قبل مؤرخينا المعاصرين لأن الكثير من شخصياتها حُسِبوا على ايران والفرس. فيها مدن مهمة معروفة مثل (كابول) وكذلك (بلخ) التي منها أتت عائلة (البرامكة) الشهيرة في الدولة العباسية والتي احتسبها مؤرخونا خطأ على الفرس. علماً بأن (برمك) الجد الأول لم يكن مجوسياً بل بوذياً، بعد سبيه وزوجته الى العراق ولد ابنهما (خالد) الذي أنجب (يحيى) الذي أنجب (جعفر البرمكي) الوزير الشهير زمن (هارون الرشيد)[29]. إذن عائلة البرامكة عراقية صميمة من خلال الولادة والتربية والتزاوج بأمهات عراقيات، ولكن هذا لا يمنع من ذكر الأصل الأفغاني البوذي لجدهم الأول.

نعود من جديد الى مؤرخنا (المطهري) لنبين كيف أنه تخطى حيثيات المنطق الانساني والوطني والتاريخي وتبنى المنطق القومي الطائفي المراوغ من أجل «تفريس» الشخصيات التاريخية العراقية. هذه بعض النماذج:

- ❖ «محمد بن قاسم الأنباري المعروف بابن الأنباري، نسبة الى الأنبار، الذي سمي أنباراً لأنه كان مخزن الحبوب على عهد الساسانيين» (ص 107). الأنباري هذا اعتبر ايرانياً لمجرد ان منطقة الأنبار كانت تابعة للساسانيين مثل كل العراق وخصوصاً أن الأنباري هذا ليس عربياً قحاً وإنما من أهل العراق الآراميين الأصليين، اذن فهو ايراني!
- ❖ محمد بن اسحاق المطلبي أول مؤلف للسيرة النبوية، هو ايراني لأنه «مولى شيعي من عين تمر بالعراق التي كانت تحت سيطرة الفرس...» (ص 109) (عين تمر) منطقة على أطراف بادية العراق قرب كربلاء وليس لها أية علاقة بايران لا من بعيد ولا من قريب!
- ❖ «ابن خلكان الأربيلي هو ايراني لأنه من مواليد اربيل في العراق»! (ص 109)!

❖ «موسى بن نصير فاتح المغرب والأندلس هو مولى فارسي» (ص 222) بينما يخبرنا التاريخ بأن حكاية موسى بن نصير مثل حكاية الحسن البصري والعديد من الشخصيات المعروفة مثل اسماعيل بن يسار ومحمد بن سيرين، إنهم ولدوا في الحجاز من آباء آراميين سبوا في جنوب العراق أثناء حروب خالد بن الوليد الأولى. يقول فيليب حتي: «كان موسى ابن رجل نصراني من العراق أخذه خالد بن الوليد أسيراً مع عدد من الصبيان أمثاله كانوا يدرسون في كنيسة تدرس الأناجيل»[30].

❖ «الحسن البصري من الموالي العجم بل الفرس» (ص 113) علماً بأن الحسن البصري هذا جميع المصادر التاريخية تتفق على أنه ولد في الحجاز وأصل أبيه آرامي مسيحي أو صابئي من ميسان في جنوب العراق وقد تم سبي أبيه وهو صبي وعاش وتزوج في الحجاز، وقد أتى الحسن الى البصرة وعاش بين أقاربه[31]. لكن المشكلة بما أنه ليس عربياً قحاً بل مولى عراقي الأصل، فإنه تلقائياً صار محسوباً على الايرانيين.

❖ «معروف الكرخي، كان من كرخ بغداد واسم أبيه «فيروز» ومن هنا يظن أنه ايراني... قيل أن أبويه كانا مسيحيين وأسلم هو...» (ص 202). إن هذا مثال على مدى التعسف في البحث عن أية اشارة توحي بفارسية الشخص. حتى الاسم يمكن الاستدلال عليه لاثبات الايرانية: فهذا اسم (فيروز) دليل كاف على نفي عراقية هذا المبدع. وكأن الأسماء الايرانية لا يمكن أبداً اطلاقها على غيرهم. لننظر الى الأغلبية الساحقة من الايرانيين أليست أسماؤهم عربية، فهل هذا يكفي لنفي انتمائهم لايران؟ والطريف ان حجة الأسماء هذه تم استخدامها بكثرة من قبل الأجهزة الحكومية في العراق من أجل التشكيك بعراقية المواطنين وخصوصاً إذا كانوا من الشيعة!

❖ «إن أول متكلم مسلم ألف كتاباً في مسائل علم الكلام هو علي بن اسماعيل بن ميثم التمار، وهو هجراني بحراني، وحيث أن البحرين كانت تحت حكم الساسانيين فهو لذلك ايراني...»(ص111). تصوروا أن كاتبنا هذه المرة تخطى العراق ليشمل برحمته أهل البحرين، وخصوصاً وأن أهل البحرين هؤلاء من الشيعة، فما أسهل احتسابهم على ايران!.

❖ ❖ ❖

التفريس باسم العروبة

مثلما ذكرنا، أن عملية «التفريس» هذه لم يبادر بها الايرانيون، بل هي بالحقيقة من صنع المؤرخين العراقيين والعرب «المتعثمنين». أما كيف تم هذا «التفريس» وأسبابه فسوف نتطرق اليها لاحقاً. الآن نستشهد ببعض نماذج هذا «التفريس العروبي» الذي تخطى بتعنته وعنصريته حتى القوميين الايرانيين. يلاحظ أن عملية «التفريس» تضمنت عدة حلقات متداخلة: أولاً، الايحاء وكأن بلداننا كانت خالية من السكان قبل وصول العرب. ثانياً، الايحاء وكأن السكان الذين وجدهم العرب أمامهم ما هم إلا (جماعات) مهمشة معزولة (سريانية أو قبطية أو بربرية) يتم حسابها بسهولة على الأجانب، وفي العراق على الأعاجم «الفرس». ثالثاً، وهي الحلقة الأقوى التي تم تطبيقها خصوصاً على العراق، فبعد اخلائه من معظم سكانه وتفريس الباقين تم الاجهاز على كل العراق وعاصمته بغداد وحاضرته ودولته العباسية باعتبارها كلها محسوبة على «الفرس» ! ونجد هذه الفكرة مكررة في معظم الكتب العربية، وها هي بعض النماذج:

اخلاء البلاد من سكانها

ـ يقول المؤرخ (ابراهيم أيوب) : «وتولى الأعمال الكتابية في الخلافة العباسية الفرس، لأن الفرس كانت لهم القدرة الفائقة في الكتابة بينما كان العرب يفخرون بالسيف لا بالقلم»[32]. لاحظوا كيف وضعنا هؤلاء المؤرخون بين نارين : إما عرب بدو (يفخرون بالسيف لا بالقلم) أو فرس حضر (لهم القدرة الفائقة بالكتابة). ليس هناك من حل وسط : هناك عرب بدو، وفرس حضر، وما علينا إلا أن نختار واحداً من اثنين : أما أسلافنا العرب البدو أو خصومنا الفرس الحضر! هذا هو تاريخنا «العروبي» الذي ضحى بأسلافنا وتاريخهم الحضاري الطويل ونظف بلداناً من سكانها لكي لا يبقى فيها سوى «العرب والفرس»!

لو عدنا الى التاريخ الموضوعي المتخلص من عقدة القومية فإنه سيخبرنا بحقيقة ثالثة واضحة للجميع ولا يمكن أن ينكرها حتى الخصوم لأنها موجودة في أي كتاب يتناول حال المنطقة قبل الفتح العربي الاسلامي. بالنسبة للعراق، نستشهد بكاتبنا «المطهري» نفسه الذي يورد المقطع التالي متحدثاً عن دور العراقيين قبل الاسلام: «وكانت أهم ناحية من نواحي الدولة الشاهنشاهية الايرانية الساسانية أرض العراق ما بين النهرين والتي كانت ميداناً للحرب بين الساسانيين والرومان، وكان أكثر أمم هذه الأراضي من العنصر السامي

ويتكلمون باللغات السامية وأن أكبر خدمة قدمها هؤلاء لايران هي أنهم كانوا يترجمون علوم اليونان الى اللغة السريانية وهم الذين أشاعوا الطب والرياضيات والنجوم والفلسفة في ايران، وقد قام من بينهم علماء كثيرون وكانت لغتهم السريانية قد شاعت لدى البلاط الساساني بعد أن كانت اللغة الآرامية (العراقية أيضاً) هي اللغة الرسمية للدولة في ايران» (ج 1 ص 27).

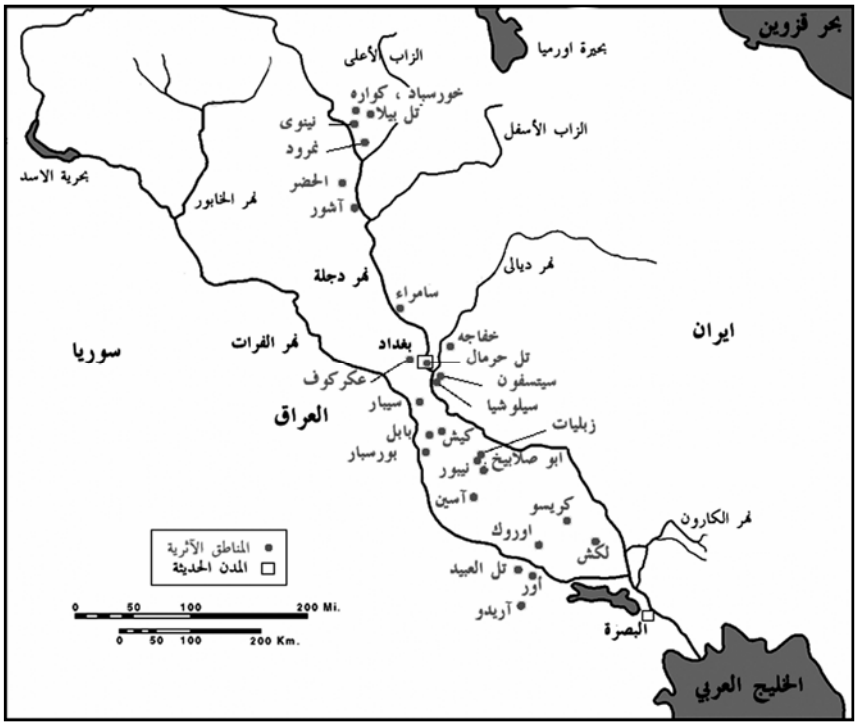

الوجود البشري والحضاري في العراق

نعم هذه هي حقيقة العراقيين ودورهم أثناء السيطرة الايرانية قبل الاسلام ويمكننا أن نجد في كتب التاريخ نفس الحقيقة عن دور الشاميين والمصريين وأهل شمال افريقيا.

لكن مؤرخينا يصرون بهوس غريب على اعتبار بلداننا قاحلة إلا من الأعاجم الأجانب وأن أسلافنا عرب وتراثهم «البداوة والجاهلية». إن هذا الهوس «العروبي التفريسي» جعل مؤرخينا يخشون ويتجنبون ذكر أي شيء عن الفترة التي سبقت الفتح، بل حتى يصرون على تشويه الحقائق التاريخية المعروفة. وان اضطروا الى ذكر هذه الحقائق فانهم يفعلون المستحيل

لكي يحرفوا معانيها الى حد يجعل أي مراقب موضوعي يعتقد بأن هؤلاء المؤرخين العروبيين جعلوا من العروبة أقرب الى «القومية المازوشية» التي تتلذذ بجلد الذات والتنكر لمفاخرها وتضخيم أمجاد الخصوم!

هاكم مثلاً مؤرخاً مثل (شكري فيصل)، يطرح نفس الموضوع أعلاه الذي طرحه (المطهري) عن نشاط العراقيين قبل الاسلام ولكن بطريقة محرفة مشوهة تصر على «التفريس»:

«شارك السريان الساكنون في الامبراطورية الساسانية في تطور الأدب السرياني... وان السريانية قد شغلت المقام الأول كأداة ثقافية أكثر من اللغة الفارسية نفسها»[33]. لنقارن بين المقطعين. (مطهري) رغم أنه ايراني، إلا أنه ذكر بتلقائية اسم (العراق ما بين النهرين) عند حديثه عن السريان. ولكن مؤرخنا العروبي (شكري فيصل) تحدث عن السريان: «الساكنون في الامبراطورية الساسانية»، هكذا، نعم، «الساكنون». كما لو يقال (الجزائريون الساكنون في الامبراطورية الفرنسية!) لقد ألغي تماماً اسم الوطن وأصبح أبناؤه (ساكنون لدى الدولة المستعمرة). كل هذا من أجل تجنب ذكر بأن هنالك بلد اسمه «العراق بلاد النهرين» وفيه شعب متحضر ناطق بالسريانية قبل أن يجيئه العرب!

لو تفحصنا مثلاً دور «الفرس» في عملية الترجمة والنهضة الحضارية الكبرى التي أحدثتها. جميع المصادر التاريخية القديمة والحديثة تعترف بدور الفرس المحدود جداً في الترجمة. ابن النديم في (الفهرست) يحدثنا عن بضعة كتب عن قصص ملوك فارس وعن حكايات (كليلة ودمنة) التي ترجمها الفرس عن الهندية. ليس هناك كتاب فارسي واحد في العلوم والفلسفة أو في التاريخ[34]. بينما على العكس، جميع المصادر تعترف بالدور الحاسم للعراقيين (السريان) الذين نقلوا ما لا يحصى من الكتب من اللغتين السريانية واليونانية الى العربية. يكفي أن نسجل هنا مثالاً واحداً على مدى غنى وعظمة الثقافة السريانية في بغداد العباسية: إن المترجم الشهير (حنين بن اسحق العبادي) وهو نسطوري من الحيرة (قرب النجف والكوفة) ولغته الأم هي السريانية، قام هذا المثقف الكبير بترجمة (39) كتاباً من اليونانية الى العربية، لكنه في نفس الوقت قام بترجمة (95) كتاباً الى السريانية وحدها[35]!

لكن مع هذا يصر مؤرخونا المعاصرون على تضخيم دور «الفرس» وتقزيم دور «العراقيين» ومعهم باقي الشعوب الأصلية في الشام ومصر وشمال افريقيا.

يقول المؤرخ (ابراهيم أيوب): «كانت الدولة الاسلامية قد اتسعت رقعتها وانفتحت على غيرها من الشعوب غير العربية من أصحاب الحضارات القديمة كالفرس والروم والهنود وهذا ما جعل المسلمين يقتبسون عن الحضارات التي احتكوا بها...»[36] لاحظ غياب أي ذكر للشعوب الأصلية التي تقطن البلدان العربية قبل العرب (الأقباط والسريان والبربر وغيرهم). هكذا في جميع كتب التاريخ المعاصرة يتم الحديث عن تأثير (الفرس والإغريق والهنود) من دون أية اشارة لدور السكان الأصليين للبلدان (العربية) المفتوحة: الآراميون في العراق والشام، الأقباط في مصر، البربر في شمال افريقيا. هؤلاء السكان معظمهم دخلوا الاسلام

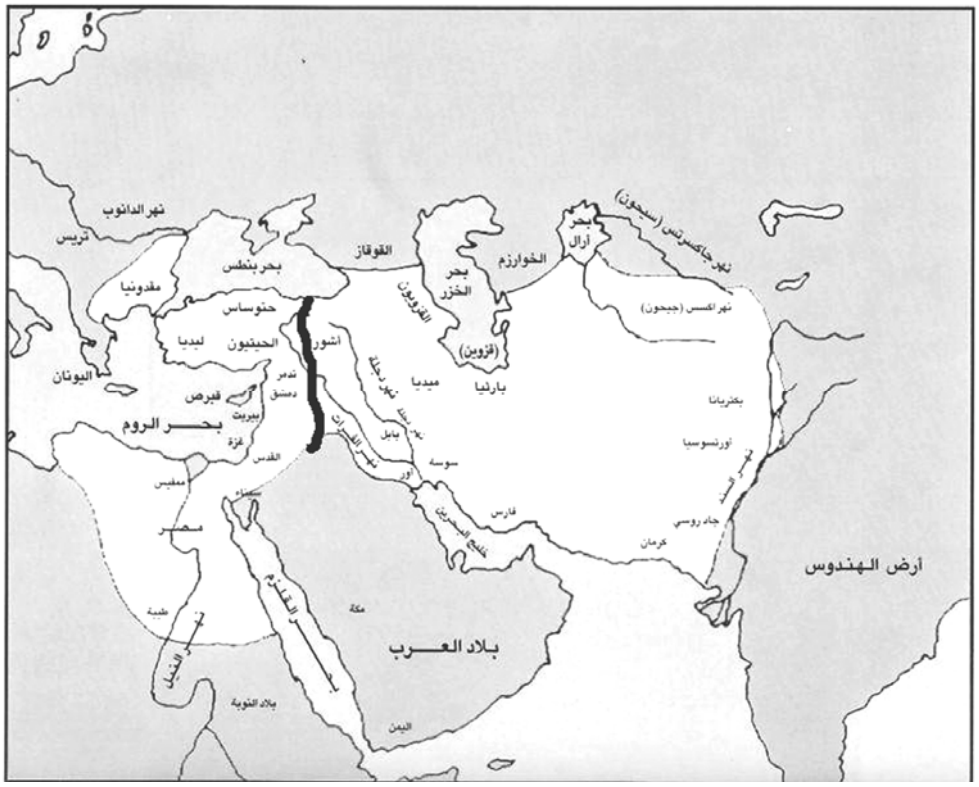

خارطة التقسيم الامبراطوري قبل الإسلام

الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفارسية الساسانية قبل الفتح الاسلامي . لاحظ ان الامبراطورية الفارسية كانت تشمل كل من بلاد النهرين وأرمينيا والقوقاس وافغانستان ومعظم تركستان. أما البيزنطية فتشمل كل السواحل الشرقية من البحر المتوسط لاحظ أيضاً أن العراق الحالي ظل دائماً موحداً حتى في ظل السيطرة الاجنبية .

المصدر : Histoire du Moyen – Orient – Bernard Lewis

واستعربوا وساهموا فعلياً ببناء دولة الخلافة وتكوين جيوشها وازدهار حضارتها. المسألة المهمة التي غابت عن المؤرخين الذين كتبوا عن المؤثرات «اليونانية والفارسية والهندية»، أنهم تناسوا المصدر الأهم والأكبر للثقافة والحضارة في العصر العربي الاسلامي: (الميراث السامي ـ العراقي الشامي) ثم (الميراث الحامي ـ المصري المغاربي). أليس الاسلام قلباً وقالباً ديناً سماوياً. الاسلام بتفاصيله ومعانيه وأفكاره وروحانيته ما هو الا خلاصة لأديان «المنطقة الشرقمتوسطية» (الآسيوية السامية ـ الافريقية الحامية) التي استعربت وأصبحت بلداناً عربية. الميراث الديني «الشرقمتوسطي»: العراقي الشامي المصري المغربي تجلى قبل الاسلام في الديانات المسيحية واليهودية والصابئية والتيارات والعرفانية (الغنوصية). هذا التراث العريق والفعال والجامع لثقافات الشرق والغرب كان المصدر الأول لتطور الفقه والثقافة والفكر في الاسلام. هل نسينا ان المسلمين عندما فتحوا هذه البلدان وجدوا أمامهم أغلبية ساحقة من المسيحيين بكنائسهم وخزانات كتبهم وفقهائهم وصراعاتهم الفكرية وطوائفهم المختلفة اليعقوبية والنسطورية وتياراتهم الفلسفية والروحانية والتنسكية والاشراقية العرفانية[37]. أليست شعوبنا هي التي صنعت المسيحية ونشرتها وكافحت من أجلها حتى فرضتها على المحتلين الرومان والبيزنط وجعلت أوربا تتخلى عن أديانها السابقة وتتبنى هذه الديانة الشامية السامية المشرقية؟ لا زالت المسيحية الأوروبية بموسيقاها وغنائها وروحانيتها وطقوسها وحتى ثبات قديسيها كلها تشهد على التأثير المسيحي السوري، بل ان بعض السوريين وصلوا الى منصب البابا في روما بعد أن سبق لهم تكوين سلالات من الأباطرة الرومان السوريين. وكانت مدينة «أنطاكيا» السورية مركز اشعاع حضاري وديني خلال عدة قرون وحتى الفتح. أما مصر فان مدينة «الاسكندرية» خلال ثمانية قرون وحتى الفتح تعتبر المركز الحضاري الأول لمنطقة البحر المتوسط ومركز التقاء التيارات الثقافية الشرقانية (السامية والحامية) واليونانية، ومن الاسكندرية انبثقت: (الغنوصية والأفلاطونية الجديدة والهرمزية)، وأنجبت أعظم العلماء والفلاسفة الذين تم احتسابهم على اليونان زوراً وظلماً مثلما تم احتساب التراث الشامي المسيحي كذلك على اليونان والرومان!

أما بالنسبة للدورالحضاري لشمال افريقيا، فيكفي الاطلاع على تلك الأسماء اللامعة التي شكلت تيارات هامة لعبت أدواراً معروفة في تاريخ المسيحية الشرقمتوسطية وتأثيرها المباشر على أوربا: (القديس ايروس الليبي) مؤسس الطائفة (الآريوسية) الشهيرة، و(القديس أوغسطين) (الفنيقي الجزائري) أول فلاسفة المسيحية، ثم (دونات) مؤسس (الحركة الدوناتية) ورائد أول حركة ثورية مسيحية ضد هيمنة الكنيسة الرومانية[38].

بالنسبة للعراق، عندما دخل المسلمون وجدوا أمامهم كنيسة بابل النسطورية التي كانت تضم 90٪ من العراقيين ومنتشرة كنائسها وأسقفياتها من نينوى حتى الأحواز وسواحل الخليج وقطرايا (امارة قطر الحالية). وكان المبشرون العراقيون النساطرة قد امتد نشاطهم وبنيت كنائسهم في تركستان والهند وحدود الصين. بالإضافة الى ايران حيث نافست النسطورية العراقية المجوسية الايرانية ودخلت حتى في البلاط الايراني مما دفع بشاهات ايران الى القيام بمذابح عديدة معروفة ضد نساطرة العراق. ويذكر لنا التاريخ دور الملكة الشهيرة «شيرين» زوجة الملك «كسرى الثاني ــ القرن السابع م» التي كانت مسيحية آرامية من مدينة (ميسان) في جنوب العراق[39]. لقد لعبت هذه الملكة دوراً مرموقاً بحماية النساطرة العراقيين. الى جانب الأغلبية الساحقة من النساطرة كانت هناك أقلية من «اليعاقبة» في تكريت والموصل، وهناك أيضاً طوائف نشطة من اليهود والمانوية البابلية والصابئة والدهريين (الدنيويين)، وجميع سكان النهرين كانت لغتهم الفصحى والدينية هي اللغة السريانية (المشتقة من الآرامية)، أما الناس فحسب مناطقهم يتكلمون بلهجات آرامية متنوعة شكلت الأساس للهجات العراقية الحالية. علماً بأن العراقيين قد تمكنوا في القرن الثالث من ابداع «الديانة المانوية» التي جمعت بين المسيحية وعبادة النجوم البابلية والصابئية. تمكن النبي «ماني البابلي» من نشر دينه وكنائسه من الصين حتى بلاد الغال. وقد ألف «ماني» سبعة كتب كلها باللغة السريانية، وبمبادرة من المبشرين العراقيين تم تكوين أول أبجدية تركستانية (الأبجدية الأيغورية) مشابهة للسريانية. لقد فرضت المانوية نفسها حتى على المجوس في ايران وشقت ديانتهم لتنبثق منها (المزدكية) الايرانية[40]. وظلت المانوية نشطة حتى أواسط العصر العباسي وأطلق عليها تسميات «الزندقة والمثنوية والمنانية» حتى هذه «الديانة المانوية البابلية» اعتبرها مؤرخونا المعاصرون جزءاً من المجوسية الايرانية. وخلطوا بينها وبين المزدكية الايرانية، علماً بأن (ابن النديم) قد تحدث عنها باسهاب في فهرسه، لم يشر بكلمة واحدة عن دور ما للفرس في نشاط المانوية والزندقة، وانما تحدث عنها كحركة عراقية وأنصارها في العراق!

إذن، هؤلاء السكان الأصليون في العراق والشام ومصر وشمال افريقيا (آراميون وقبط وبربر) اعتنقوا بأغلبيتهم الاسلام وتبنوا العربية والعروبة، فهل يعني هذا انهم يستحقون الالغاء من التاريخ واعتبارهم (شعوب منقرضة) كما يحلو لمؤرخينا المعاصرين الحديث عنهم. والحقيقة ان شعوبنا الأصلية هذه لم تنقرض بل ذابت حضارياً في الثقافة والدين الجديدين. لقد مرّت بحالة الذوبان وتغيير اللغة والدين هذه جميع شعوب الأرض طيلة فترات التاريخ.

لأن التاريخ يخبرنا دائماً أن «انقراض اللغة والدين» أسهل بكثير من «انقراض الناس». وأن عمليات الإبادة «العرقية» الفعلية للشعوب لم تعرفها البشرية إلا في القرون الأخيرة وعلى يد الأوروبيين بسبب امتلاكهم للأسلحة النارية ووسائل السيطرة والفتك والإبادة التقنية والطبية (مثال قارة أمريكا الشمالية).

أليس من المعقول أن تكون شعوبنا الأصلية هي المصدر الأول والأكبر في صنع الحضارة العربية الاسلامية التي نشأت واستقرت عواصمها في بلداننا: دمشق وبغداد والقاهرة؟ هل من المقبول أن يعترف مؤرخونا المعاصرون (إسلاميون وعلمانيون) بتأثير: «المجوسية الايرانية والروحانية الهندية والفلسفة الاغريقية»، مع تجنب الاعتراف بالتأثير الحاسم لميراث شعوبنا الأصلية بحجة (غير معلنة) بأنه ميراث (مسيحي ــ يهودي) يقلل من دعوة انتساب شعوبنا للقبائل العربية الفاتحة؟ أليس من الظلم أن جميع المؤرخين العرب المعاصرين يذكرون المصادر (اليونانية والفارسية والهندية) للثقافة الاسلامية مع تجاهل المصدر الأول والأكبر لشعوبنا التي منحت الاسلام ميراث أربعة آلاف عام من الحضارات والابداعات العلمية والأدبية والدينية؟

تعجيم السكان وتغريبهم

بعد أن أتم مؤرخونا إخلاء العراق من سكانه الأوائل فإن المرحلة الثانية تمثلت بتغريب وتعجيم الباقين ممن أسلموا (الموالي) والتعامل معهم كأجانب متطفلين على بلادهم ودولتهم. اسمعوا ماذا يقول مؤرخنا الكبير (أحمد حسن الزيات) عن العصر العباسي في بغداد: «وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة واستبدوا بأمورها وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع. فضعفت العصبية العربية، وعلا صوت الشعوبية، ونتج عن ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل...»[41]. لاحظ مؤرخنا كيف يرثي حال العرب الذين لم يسمحوا فقط بإشراك هؤلاء «الموالي الأعاجم» في الدولة، بل تركوا الدماء العربية تتلوث بدماء هؤلاء الموالي من خلال التزاوج والتناسل! بالاضافة الى وضع الجميع في جبهة واحدة، والعرب في الجبهة المقابلة. والطريف ان كاتبنا اعتبر الجميع «موالي أعاجم»، لكنه استثنى ذكر «الأقباط» لأن وطنيته المصرية منعته من تغريب وتعجيم أشقائه «الأقباط» وجرح مشاعرهم، أما الآخرون فلا يهم!

يبلغ الحرج بهؤلاء المؤرخين من أجل الاعتراف بدور العراقيين المتميز في صنع الحضارة العباسية الى حد الاضطرار للاعتماد على الطروحات العنصرية المعروفة ضد الشعوب

السامية. ترى مؤرخنا (الزيات) يشرح النزعة العقلية التي سادت لدى أهل العراق في ذلك الوقت فيقول: إن «القياس في استنباط الفقه.. بتأثير الجنسية الآرية فيهم» (ص 436). نعم هكذا، فأهل العراق «عرب بدو» لا يعرفون غير الصحراء وخيالاتها وروحانيتها والنزعة العقلية لا تأتيهم إلا من «الآريين الايرانيين»! لقد أصاب العمى القومي مؤرخنا بحيث جعله يتناسى حضارة أربعة آلاف عام سبقت الاسلام وسبقت حتى الوجود الآري في ايران وان العراقيين هم الذين أسسوا علوم الرياضيات والطب والفلك والنجوم وحساب الزمن والهندسة، هذا باعتراف جميع المؤرخين. بل إن العالم الفرنسي الشهير (جان بوترو)[42] طالب بتدريس حضارة النهرين في المناهج الدراسية الأوروبية قبل دروس الحضارة اليونانية والرومانية باعتبارها الأساس الذي انطلقت منه الحضارة الانسانية.

إن حمى «تفريس» سكان العراق شملت جميع المؤرخين حتى مؤرخ جاد مثل «فيليب حتي» فهو مثلاً في كتابه الشهير عن (تاريخ العرب) يتبنى مثل الباقين عملية «تفريس» الشخصيات العراقية بصورة تتنافى مع العلمية والجدية التي يتصف بها عادة. تراه مثلاً يتحدث عن أحد الأطباء في زمن العباسيين: «وقد اشتهر طبيب يهودي بصري الأصل فارسي الجنس يدع ماسرجويه.. قام بترجمة كناس سرياني الى العربية..»[43]. تصوروا، طبيب يهودي ومن أهل البصرة وترجم من السرياني الى العربي.. طيب من أين أتاه هذا«الجنس الفارسي»؟ طبعاً السبب الوحيد لتفريس هذا الطبيب العراقي البصري، ان اسمه (ايراني). لماذا إذن لا يحتسب علماء ايران على العرب ما داموا كلهم حملوا الأسماء العربية؟!

يبلغ هذا الفهم العرقي القومي لدى بعض المؤرخين حد الابتذال والتبجح بالتعصب الطائفي والقومي. ها هو أحدهم ويدعى (الدكتور محمد شريف) صاحب كتاب معنون (القادسية الكبرى) والصادر عام 1986 دعماً لسياسة الحكومة العراقية. خلال جميع صفحات الكتاب البالغة (611 صفحة) كافح مؤرخنا العروبي بكل شهامة من أجل «تفريس» ليس تاريخ العراقي وحده، بل كذلك القسم الأكبر من التاريخ العربي وخصوصاً المتعلق بالشيعة:

ـــ كالعادة ابتدأ بتعجيم وتهميش سكان العراق الأصليين (الأنباط)، إذ يقول عنهم تهكماً: «إنهم جماعة أطلق عليهم اعتباطا أو تندراً لقب الأنباط يعملون في الزراعة للدهاقين الفرس»[44]. هكذا عدة ملايين من الفلاحين اعتبروا «جماعة» يعملون في الزراعة للدهاقين الفرس!

وبعد أن أتم الخطوة الأولى بدأ هجومه «التفريسي» الكاسح ضد التاريخ العراقي والعربي:

ــ مؤسس السبئية (فرقة شيعية) عبد الله بن سبأ اليهودي المجوسي بن الأمة السوداء (ص132). «القرامطة وحركة الزنج كلها بقيادات فارسية». وان «الباطنية والدولة الفاطمية (في المغرب ومصر وسوريا) قد مهد لها ميمون القداح الديصاني المجوسي اليهودي» (ص154). «ومدينة السلمية قرب حماه مقر الاسماعيلية زعيمها فارسي» (ص157). و«مذهب النصيرية (علوية سوريا) له علاقة باسماعيل الصفوي (الفارسي)» (ص 158). إن «الماوية والسبئية وآراء يوحنا الدمشقي والغنوصية، كل هذه مهدت السبيل الى ظهور الزندقة والشعوبية والحقد على العرب حملة الرسالة»(ص 151)!

تفريس العراق ودولته العباسية

بعد أن أنجز المؤرخون عملية «تفريس» سكان العراق الأصليين قبل الاسلام ثم بعد الاسلام لم يبق لهم غير «تفريس» كل العراق وعاصمته بغداد ودولته العباسية. هذه بعض النماذج:

ـ الزيات يقول: «أما الدولة العباسية فقد اصطبغت بصبغة فارسية، لأن الفرس هم الذين أوجدوها وأيدوها، فاتخذت قصبتها بغداد أقرب الأمصار الى بلادهم» (ص233). هكذا اذن، تم اختيار (بغداد) لأنها قريبة من ايران! لا ندري عن أي «فرس» يتحدث هؤلاء المؤرخون؟ هل كان العباسيون قريشيين عراقيين أم فرس؟ الحركة العباسية تأسست ونشطت وانتشرت في العراق وأنصارها وكوادرها ومثقفيها من العراقيين، وحتى الخراسانيين الذين ناصروها (تركستان وايرانيين) كانوا تحت قيادات ونخب من العراقيين (عرب وموالٍ) الذين أقاموا في خراسان بعد الفتح. مقر قيادة الحركة العباسية لم يكن في ايران بل في «الأردن» (قرية الحميمة) جنوب البحر الميت[45].

طيب، إذا كانت الدولة العباسية فارسية، لماذا لم يختر هؤلاء الفرس عاصمتهم في ايران نفسها؟ ألم يختر الفاطميون القاهرة، والأندلسيون الأندلس، فما الذي منع الفرس من تأسيس العاصمة في بلادهم؟ ثم لماذا لم يختاروا خليفة ايرانياً؟ ألم يختر الأتراك العثمانيون خليفة من عندهم على كل المسلمين وجعلوا العاصمة (اسطنبول) في بلادهم، وظلوا يحكمون العرب والمسلمين لما يقرب الخمسة قرون! ثم عن أية صبغة فارسية يتكلمون، وقد تخلى الايرانيون

طوعاً خلال أقل من قرنين عن دينهم المجوسي الذي اعتنقوه لما يقرب الألف عام! ثم اللغة الفارسية أي دور لعبت في زمن العباسيين، ألم تكن العربية هي السائدة حتى في ايران، بل ان لغتهم الفارسية تغيرت تماماً بتأثير العربية وانفصلت عن اللغة السابقة (البهلوية). لو كان الايرانيون بذلك الحضور الأسطوري المنفوخ لماذا لم يفرضوا لغتهم مثلما فعل العثمانيون بفرضهم التركية على دولة الخلافة العثمانية وادارتها رغم ايمانهم بالاسلام والقرآن!

ـ أما مؤرخنا (جورجي زيدان) فانه بكل بساطة أطلق على العصر العباسي (العصر الفارسي)، ويقول: «إن الدولة العباسية قامت بالفرس وفيهم الموالي وأهل الذمة»[46]. ان مؤرخنا يحتسب سكان العراق (الموالي وأهل الذمة) على الفرس! لكنه بعد فصل يضطر ان يذكر حقيقة أساسية تكشف عن مدى زيف المبالغة بدور الفرس في الدولة العباسية: «من بين 13 خليفة عباسي لأم غير عربية، هناك المأمون فقط أمه فارسية» (ص 429). نعم المأمون فقط كانت أمه فارسية. وباقي الأمهات كن عراقيات ومصريات وسريانيات وبربريات وأرمنيات وتركستانيات وغيرهم. وأشهر أمهات الخلفاء العباسيين التي لعبت دوراً سياسياً متميزاً في التاريخ، لم تكن فارسية، بل هي «الخيزران» أم الخليفة هارون الرشيد التي كانت من أصل (بربري مغربي، أو يماني)[47].

ـ مؤرخنا وناقدنا الكبير (أحمد أمين) في كتابه الأساسي (فجر الإسلام) يعطي للفرس الدور الأول والحاسم في كل شيء، إنه بكل سهولة وتلقائية اعتبر العراق كله جزءاً من «بلاد فارس»! تراه مثلاً للتدليل على دور الفرس في التأثير على فن الكتابة العربية، فانه يستشهد بالدور الكبير الذي لعبه كاتب الأمويين (عبد الحميد الكاتب). وللتأكيد على «فارسية» هذا الكاتب اسمعوا مؤرخنا ماذا يقول عنه: «ان عبد الحميد من الموالي وأصله من الأنبار» ثم يضع ملاحظة في أسفل الصفحة: «الأنبار: مدينة على الشاطىء الأيسر للفرات في الشمال الشرقي من العراق»[48]. نعم هكذا للتدليل على فارسية الشخص يكفي أن نثبت انه من العراق. علماً أن مدينة الأنبار تبعد مئات الكيلومترات عن ايران وهي محاذية تماماً لسوريا ولبادية الشام وسكانها متأثرون كثيراً بالقبائل البدوية، هي منذ القدم مدينة سامية عربية عراقية خالصة تماماً، فكيف حصل أن أصبح أبناؤها محسوبين على الفرس؟

ـ (فيليب حتي) يقول في معرض حديثه عن بناء بغداد: «اختار المنصور قرية فارسية على الضفة الغربية لدجلة موقعاً يبني فيه عاصمته بغداد»[49] هكذا بسهولة عجيبة تمتلىء كتب

التاريخ بهذه المفاهيم السريعة والبديهية الى حد القرف. عن أية قرية فارسية يتحدث هذا المؤرخ وهو يعرف جيداً بأن بغداد في وسط العراق ، والعراق كله باعتراف هذا المؤرخ كان آرامياً مسيحياً ثم إسلامياً عربياً فمن أين أتت هذه القرية الفارسية لتصبح مكاناً لعاصمة الخلافة؟ لو افترضنا ان اسم «بغداد» من أصل فارسي ، فهل هذا يكفي للقول بأنها قرية فارسية. هل يصح القول أن (طهران) عربية بالاعتماد على اسمها فقط؟ وهل (طرابلس) يونانية؟ ثم ان اسم «بغداد» لم يثبت أبداً أصله الفارسي بل هناك فرضيات عدة. ها هو (أمين الريحاني) يقول : «بغداد بابلية الأصل. فقد أسسها نبوخذ نصر في المكان الذي دارت فيه رحى الحرب بينه وبين أعدائه ، تذكاراً لانتصاره عليهم ، وأسماها «بعل داد» أي مدينة بعل... وقد اكتشف عام 1848 في الجانب الغربي في الكرخ بقية حصن مبني بالآجر عليه اسم نبوخذ نصر وفتوحاته»[50] (علماً أن حرفي العين والغين يتبادلان في اللغات السامية مثل كلمتي عرب وغرب).

أن يكون اسم (بغداد) عراقياً سامياً هو أمر طبيعي ، خصوصاً اذا علمنا ان الأغلبية الساحقة من أسماء المناطق العراقية هي أسماء (سومرية ــ أكدية ــ آرامية) سبقت العرب ، مثل : سامراء وبعقوبة والبصرة وكربلاء وميسان ونينوى وكركوك واربيل والكوفة والنجف ودجلة والفرات ، وغيرها العديد من الأسماء[51]، بل ان الكثير الكثير من المسميات التي نعتقدها عربية في العراق هي ميراث عراقي سابق للعرب. منها مثلاً ، أسماء الأشهر الميلادية الحالية الموروثة من تقويم السنة البابلية التي تبدأ بشهر نيسان وتنتهي بآذار ، نجد بقايا هذا النظام البابلي في ترتيب الأبراج الذي يبتدىء بالبرج الأول (الحمل) في نيسان[52].

إننا على هذا المنوال يمكننا أن نستشهد بعشرات الكتب المؤلفة من قبل عراقيين وعرب ، أما بالنسبة لتلك المؤلفة من قبل المستشرقين فانها عموماً لا تختلف عن الكتب العربية بسبب التأثير المتبادل بين الطرفين في هذا المجال. هناك كتب لا يمكن أن نستشهد ببعض مقاطعها لأنها منذ أول صفحة حتى آخرها تعلن عن عنصريتها (القومية المازوشية) بأسم (النقاء العروبي) ومعاداة (الفرس المجوس) تعتبر كل شيء أنتجته الحضارة العباسية هو فارسي من دون أي جدل : «الثياب الزاهية والقصور الفخمة والخمرة والغزل وحب الورود والنساء والغلمان والأفكار والتيارات الشيعية والمعتزلة والتصوف والدولة الفاطمية وثورات القرامطة والزنج». كل شيء يصبح بالنسبة لهؤلاء القوميين فارسياً زنديقاً شعوبياً مجوسياً ، بصورة تبلغ حد

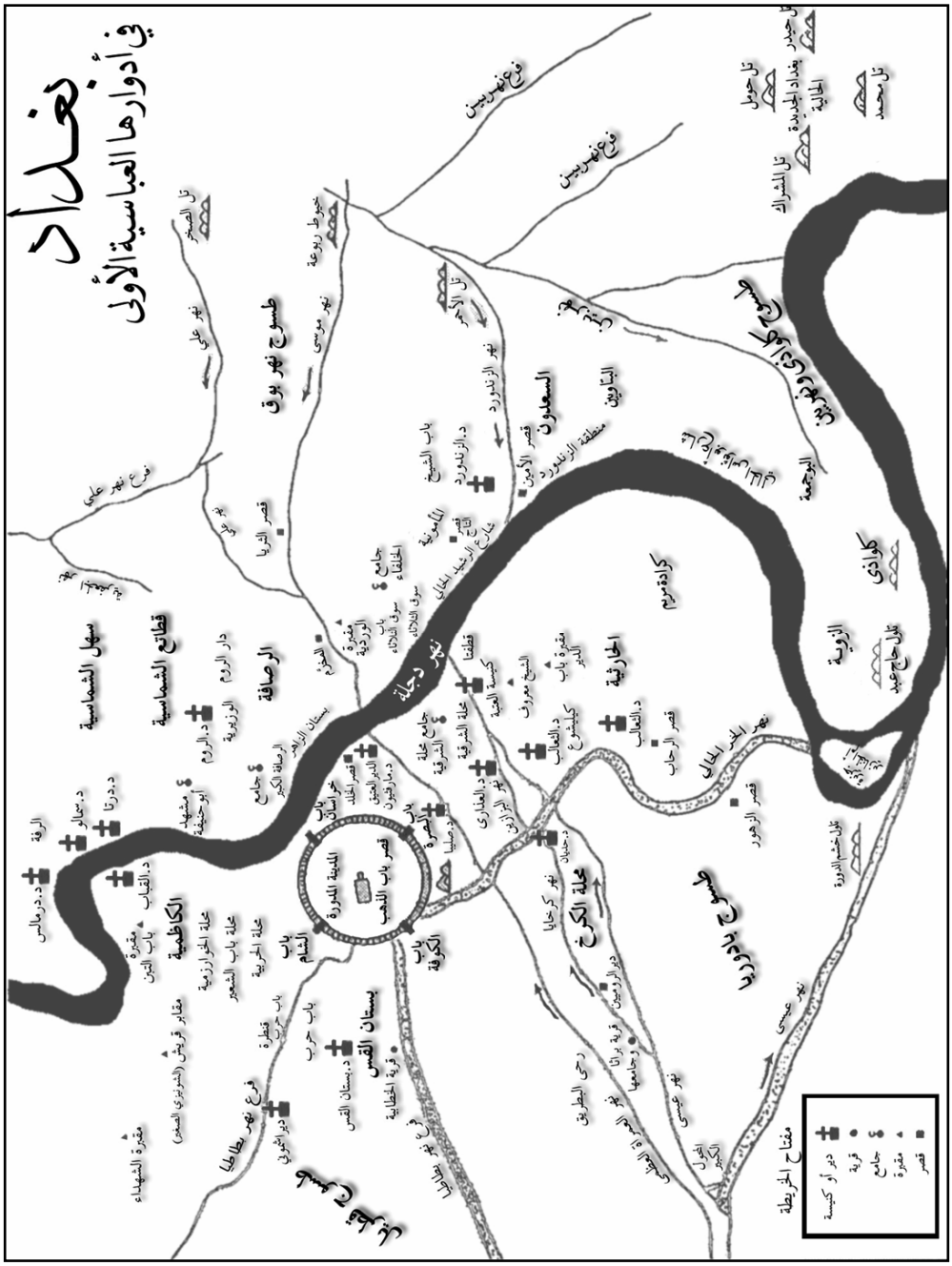

هذه الخارطة تكشف عن ضخامة التواجد المسيحي حول بغداد العباسية والعدد الكبير للأديرة والكنائس المنتشرة في جميع أنحاء العراق .

المصدر : تاريخ الكنيسة السريانية البيرابونا : ج2

الهوس المرضي! نسجل هنا بعض هذه الكتب الزاخرة في كل صفحة بالأمثلة التفريسية الى حد السريالية والفنتازيا والهذيان: (الدكتورة زاهية قدورة – الشعوبية وأثرها)، (الدكتورعبد الله الغريب – وجاء دورالمجوس)، (الدكتورمحمد شريف – القادسية الكبرى)، (الدكتور عبد العزيز الدوري – الجذور التاريخية للشعوبية).

النخب «المتعثمنة» والتعصب الطائفي ـ العروبي

الأمر الذي يجلب الانتباه ويستحق البحث والاهتمام ان هذا التضخيم «الهوسي والمرضي» لدور الفرس ليس له أي أثر في المصادر التاريخية المعروفة التي كتبت في تلك الفترة مثل: (تاريخ الطبري) و (فهرست ابن النديم) و (معجم البلدان لياقوت الحموي) و (كتب ورسائل الجاحظ)، والعشرات من المصادر التاريخية الأخرى التي تمكنا من الاطلاع عليها. جميع المصادر تذكر الفرس بصورة معقولة جداً وتشيد بدورهم مع ذكر الشعوب الأخرى من دون مبالغة ولا تعصب. (مقدمة ابن خلدون) أفضل مثال على الرؤية الموضوعية الانسانية للتاريخ العربي الاسلامي. إنه يكتب التاريخ من دون تعصب لأي جهة ويذكر الجميع بخيرهم وشرهم. تراه رغم افتخاره بأصله العربي اليماني «الحضرموتي» فانه لا يتوانى عن القول: «إن العرب أبعد الناس عن الصنائع... والسبب في ذلك أنهم أعرق في البداوة وأبعد عن العمران الحضري.. وأن عجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك لرسوخهم في البداوة..» (ص730). لكن اعترافه ببداوة العرب لا يجعله أبداً يقع في مطب «التفريس» الذي وقع فيه مؤرخونا القوميون ولا تراه يتحدث عن (اليونان والفرس والهنود) دون أي ذكر لشعوبنا الأصلية. لا، انه على العكس يمنح الدور الأول في تكوين الحضارة العربية الاسلامية لشعوب المنطقة الأصليين تراه يقول: «لم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر» (ص 658). ثم انه يعترف بدور «الفرس» الحضاري ولكن من دون أية مبالغة وهوس وبالتساوي مع الشعوب الأخرى: «فالفرس طالت مدتهم (بالحضارة) آلافاً من السنين وكذلك القبط والنبط والروم» (ص638). ثم انه يعترف بدور مصادر الحضارات الأخرى التي تلفت معظمها حسب تصوره: «أين علوم الفرس التي أمر عمر بمحوها عند الفتح، وأين علوم الكلدانيين والسريان وأهل بابل، وما ظهر عليهم من آثارها ونتائجها، وأين علوم القبط من قبلهم»(ص 63). طالما كرر مؤرخونا المعاصرون مقولة (ابن خلدون) المعروفة: «إن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من العجم» (ص 1047). لكنه أبداً لم يفهم كلمة «عجم»

على أنها تعني «الفرس»، بل فهمها بمعنى «غير الناطقين بالعربية» كما بينا سابقاً. تراه يقول : «حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى لاتساع الفن بالعراق» (ص 1049). ثم يذكر (ابن خلدون) دور أهل بابل الذين أوجدوا (علم التنجيم والفلك) الذي أسماه (السحر والطلاسم) وتراه يشير بكل صراحة ووضوح كيف ورث علماء العراق والمشرق هذا العلم من أسلافهم. يقول «وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير.. وفي أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التأليف والآثر ولم يترجم لنا من كتبهم فيها الا القليل، مثل الفلاحة النبطية لابن وحشية من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه.. ثم ظهر في المشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة» (ص 924). ان (ابن خلدون) بوعيه التاريخي الشامل أدرك دور شعو بنا الأصلية باغناء ميراث البشرية يقول : «وكان الكلدانيون ومن قبلهم السريانيون ومن عاصرهم من القبط عناية بالسحر والنجامة وما يتبعها من الطلاسم، وأخذ ذلك عنهم الأمم من فارس ويونان» (ص 890).

إذن، إن عملية «التفريس» المعاصرة ليس لها أي أساس علمي في المصادر التاريخية الأصلية.في الحقيقة ان عملية «التفريس» هذه للتاريخ العراقي تعود أساساً الى نهاية الفترة العثمانية أي في القرن الماضي حينما بدأت أولى بوادر النهضة الثقافية وإعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي. من المعروف أن النخب المثقفة في العراق والشام رغماً عنها تبنت الكثير من مواقف الدولة العثمانية المسيطرة التي كانت تخوض الصراع المرير والدامي ضد خطر الدولة الايرانية. المشكلة ان السلالات التي حكمت ايران منذ القرن السادس عشر (الصفوية ثم القاجارية) كانت ناطقة بالتركستاني مثل العثمانيين ؛ وهذا يعني أن الشيء الوحيد الذي كان يفصل الايرانيين عن العثمانيين، لا اللغة ولا القومية ولا الدين، بل هو «المذهب» وحده.

على هذا الأساس أخذ الصراع المذهبي بُعداً سياسياً وحضارياً وصار الانتماء الطائفي أشبه بالانتماء القومي. كل «الشيعة» في العالم صاروا تلقائياً محسوبين على ايران، وكل «السنة» صاروا محسوبين على الدولة العثمانية. حدة المشكلة تركزت أساساً على العراق. من سوء حظه أن الايرانيين اعتنقوا «المذهب الشيعي الجعفري» الذي مقر عتباته المقدسة وحوزته العلمية في العراق. أما العثمانيون فقد اعتنقوا «المذهب الحنفي» الذي كان يسمى (مذهب أهل العراق) ومؤسسه الفقيه العراقي (أبو حنيفة) المدفون في بغداد[53]. إذن تكاملت المأساة وأصبح العراق

البائس الجريح مركز مذهبي هذين العملاقين المتصارعين و«ساحة حربهما المقدسة» وصار الشعب العراقي كبش فداء لفروض الحج الدامي وبالذات الأغلبية الشيعية. بكل بساطة احتسب العثمانيون هؤلاء الشيعة العراقيين على ايران وتم اعتبارهم نوعاً من الرتل الخامس. خلال أربعة قرون ظلت ايران تكافح المستحيل من أجل انتزاع العراق وعتباته الشيعية المقدسة من العثمانيين. بين حين وآخر تجتاح ايران العراق وتنتزعه من الأتراك وتشرع بالمذابح ضد السنة وتنبش قبر (أبي حنيفة). وسرعان ما يعود الأتراك ليعيدوا جثمان (أبي حنيفة) الى وضعه ويشرعوا بالمذابح والقمع ضد الشيعة.. وهكذا لأربعة قرون! لقد بذلت ايران الجهد والمال والذهب من أجل كسب شيعة العراق وجرهم لنصرتها. وكانت جموع الحجاج الايرانيين لا تتوقف وجثث موتاهم القادمة الى مقبرة النجف كانت هي التجارة الأولى الرائجة بين العراق وايران، بل كان الأمر يصل أحياناً الى حد تهريب هذه الجثث سراً بين البضائع الأخرى[54]! أما طلاب العلم الايرانيون فقد ظلوا دائماً هم الأغلبية في الجامعات والحوزات الشيعية العراقية. خلال هذه القرون تمكنت ايران فعلاً من أن تؤثر في جزء مهم من النخب الشيعية العراقية وتبث فيهم روح التعاطف والتعلق الخاص بايران. بل ان الكثير من قادة هذه النخبة الدينية العراقية كانوا بصورة أو أخرى من أصول ايرانية أو نتيجة تزاوج عراقي ايراني ولهم علاقة متميزة مع ايران. طبعاً مقابل هذا، فان الدولة العثمانية جرت الى جانبها النخب السنية العراقية وفضلتهم في المكاسب السياسية والعسكرية والاقتصادية لقاء تهميش شيعة العراق وعزلهم عن كل ما يتعلق بالدولة ومؤسساتها الادارية والعسكرية والتعليمية.

في ظل هذه الوضعية المتوترة قامت النخب العراقية والشامية والمصرية «المتعثمنة» بكتابة التاريخ العربي، والعراقي خصوصاً في ظل تلك الأجواء المشحونة بالتعصب الطائفي والصراع الايراني ـ التركي كُتب تاريخ العراق الأموي والعباسي. والمشكلة أن هذا التعصب العثماني المعادي للشيعة ولايران التقى مع التيار «القومي العروبي» الذي وقع في الفخ العثماني وتبنى الفهم العرقي للتاريخ بتأثير من أيديولوجية «القومية الجرمانية» التي كانت مؤثرة في النخب العثمانية على غرار الألمان، قام الأتراك بصنع قوميتهم على أساس «القومية الطورانية» واعتبار الشعب التركي جزءاً عرقياً بيولوجياً من «الوطن الأم» في طوران (تركستان) في آسيا الوسطى[55]. على غرار الأتراك قام دعاة القومية العربية باعتبار شعوب العراق والشام وباقي البلدان العربية منحدرة عرقياً من «الوطن الأم» الجزيرة العربية[56]. ثم ان هذه النخب العربية «المتعثمنة» ورثت أيضاً عقدة خاصة بالأتراك تتمثل بحقيقة تأثير الثقافة

الفارسية على الشعوب التركستانية منذ أيام الامبراطورية الساسانية واستمرار تأثير الثقافة الفارسية على الثقافة التركية العثمانية.

على أساس هذا الفهم «العروبي العرقي» الممتزج بالطائفية العثمانية وعقدة النقص التركية ازاء الحضارة الايرانية، تمت كتابة التاريخ الاسلامي العربي بطريقة قومية طائفية معاصرة. في جو الرعب الايراني الشيعي تمت غربلة تاريخ الحضارة العربية الأموية العباسية وذلك برمي كل ما هو مشكوك في نقاء عروبته في «مزبلة الشعوبية الفارسية»! هكذا اذن وقعت نخبنا المثقفة في المأزق التركي العثماني وتبنت مفاهيم «العروبة العرقية الطائفية» وأعلنت الحرب الشعواء ضد كل ما له علاقة بالفرس والشيعة. من أجل تضخيم الدور السلبي «للعدو الفارسي» ثم تضخيم الدور الكلي لهؤلاء الفرس، بحيث حُسِبَتْ عليهم كل تفاصيل الحضارة في بغداد والعراق: الإلحاد والزندقة (فارسية)، الطرب والفن والخلاعة (فارسية)، التغزل بالجواري والغلمان والخمرة (فارسية)، التشيع والمانوية والباطنية (فارسية)، الشعوبية والتمرد والثورة (فارسية). لم يُترك شيء من الحياة والحضارة والابداع إلاونُسب الدور الأول والأكبر فيه للفرس. بل حتى الأعلام والمبدعين اللذين من أصول تركستانية وقفقاسية وأرمنية وهندية وسندية تم احتسابهم على الفرس، مثل (ابن سينا والفارابي والخوارزمي والبيروني) لمجرد أنهم ليسوا «عرباً أقحاحاً»!

❖ ❖ ❖

تأثير العقدة الإيرانية في الحاضر العراقي

بما أن الشعوب مثل الأفراد، بقدر ما يكون الاحساس بالماضي هشاً والارتباط به ممزقاً، بقدر ما يكون الارتباط بالحاضر كذلك هشاً وممزقاً. بعد أن تم تصفير الدور العراقي في الحضارة العربية الاسلامية وتضخيم «البعبع الفارسي» في هذه الحضارة انعكس الأمر مباشرة على الواقع السياسي والثقافي للمجتمع العراقي. هكذا خلقت في العقل الباطن العراقي «عقدة نفسية ــ سياسية ــ ثقافية» تمس مباشرة الاحساس بقيمة الذات الوطنية التاريخية وهذه العقدة يمكن تسميتها بكل بساطة: «العقدة الايرانية». هذه العقدة تتغذى من مصدرين: أولهما هو الماضي الذي تم «تفريسه» وتمزيقه، والثاني هو الحاضر المهدد دائماً بما يسمى بـ «الخطر الايراني». وظل الهدف الخفي غير المعلن من كل عملية التشويه هذه خدمة

الضرورة السياسية العثمانية الكبرى: احتساب شيعة العراق (والبلدان العربية) على الفرس «الزنادقة المجوس» واعتبارهم جاليات أجنبية مشكوك بولائها، وبالتالي تبرير عزلهم وقمعهم وحتى طردهم من الوطن. هذا ما مارسته فعلاً الحكومات العثمانية في جميع مناطق الشيعة وحتى خارج العراق. في مكة والمدينة مثلاً حتى أواسط القرن الماضي كان الجزء الأكبر من السكان في هاتين المدينتين هم شيعة[57]، والآن لا يوجد في هاتين المدينتين أي أثر لهؤلاء الشيعة. والسبب أن العثمانيين والوهابيين رغم عدائهم وحروبهم الدامية إلا أن مصلحة الاثنين التقت في محاربة الشيعة من خلال المذابح والتهجير والإجبار على تغيير المعتقد. سياسة العزل والإفقار والإبعاد مورست في البحرين والإحساء وسوريا ولبنان، أما في العراق فقد واصلت الحكومات العثمانية ثم العراقية عمليات الطرد المستمرة للجماعات الشيعية التي وصلت ذروتها في الثمانينات بطرد ما يقارب مليون عراقي الى حدود ايران بحجة عدم ثبوت أصولهم العراقية العربية النقية[58].

هكذا إذن فعلت النخب «المتعثمنة» في تاريخنا وحاضرنا. بسبب مصالح طائفية ضيقة وبسبب تبعية قرون للدولة العثمانية تمت التضحية بتاريخ الوطن وحاضره ومستقبله. رغم زوال العثمانيين إلا أن عقليتهم التي زرعوها خلال قرون ظلت تنمو وتثمر في عصرنا الحديث. ثم ان الانكليز اللذين شكلوا الدولة العراقية الحديثة تبنوا نفس اللعبة ودعموا عملية الهيمنة الطائفية وتشجيع حالة عزل الشيعة من أجل تطبيق سياسة «فرق تسد»[59]. حتى عندما حاول الملك الراحل (فيصل الأول) التخلص من هذه الحالة الطائفية فانه عانى من مصاعب كثيرة انتهت بموته المشكوك بأسبابه. ان التيار القومي العربي الذي فرض هيمنته السياسية والثقافية استمر بالعزف على وتر «الخطر الايراني». من خلال التبجح بالعلمانية والنقاء العرقي العربي استمرت اللعبة الطائفية العثمانية واستمر تشويه التاريخ العراقي والمغالاة بتفريسه واتهام خيرة أعلامه ومبدعيه بالميول «الشيعية الفارسية المجوسية اليهودية الشعوبية الزندقية» (هذه العبارة الأخيرة ليست مبالغة من عندنا بل مذكورة في عدة كتب تطرقنا لبعضها في دراستنا). وصل الأمر الى ذروته في الثمانينات عندما تم تحطيم تمثال الشاعر العراقي الأحوازي المعروف «أبو نواس» بعدما صدرت فتوى قومية باعتباره فارسياً!

إن هذه النظرة العنصرية «التفريسية» من القوة والتأثير بحيث أنها دخلت في جميع كتب التاريخ وتربت عليها في العصر الحديث أجيال وأجيال من الطلبة والمثقفين والسياسيين والمؤرخين ودخلت حتى في الذهنية الشعبية بحيث صار من الطبيعي الاعتقاد بأن «التشيع»

خارطة الأحواز التابعة حالياً لأيران

هذه خارطة منطقة الأحواز(عربستان) تبين الفرق بين الاحواز (الصغرى) بحجمها التاريخي المعقول والواقعي، و(الاحوزا الكبرى) المبالغ بحجمها إذ تشمل كل الساحل الايراني من الخليج والذي تطالب بها الحركات الاحوازية، لانها مقطونة بسكان عرب! كذلك خارطة (ولاية الاحواز) الحالية وتقسيماتها الادارية بعد(تفريس) مسمياتها من قبل الحكومة الايرانية، بما فيها اسمها (الاحواز) الذي اصبح(خوزستان) ويعني(ارض الاحواز)!

علماً بأن الأحواز ظلت دائماً جزءاً تابع حضارياً وسكانياً للعراق، واحيانا اداريا وسياسيا . ويكمن السبب في أن هذه المنطقة هي أمتداد جغرافي طبيعي لسهل جنوب العراق . منذ فجر التاريخ كانت فيها الحضارة العيلامية التي ظلت خلال ألفي عام تابعة حضارياً ودينياً للسومريين والساميين . علماً ان العيلاميين شعب (أسياني) مثل السومريين وهم سكان المنطقة منذ التاريخ المجهول . بعدها أنتشرت المسيحية النسطورية بين سكان الأحواز وكذلك اللغة الآرامية العراقية، وتكونت فيها مدينة (جندشابور) الشهيرة بكونها مركزاً علمياً حضارياً للثقافة السريانية المسيحية وكذلك الأغريقية . وكان الأسم السرياني لهذه المدينة هو (بيت عابات – بيت العيبة أو الهزيمة) . بعد الفتح الاسلامي انتشرت اللغة العربية وأصبح السكان جزءاً من سكان وعشائر جنوب العراق، لكنها الآن ومنذ عام 1925 أصبحت جزءاً تابعاً لأيران وتعاني من عمليات التفريس المستمرة .

العراقي والعربي هو من أصل فارسي، وان جميع جوانب الحياة والثقافة في العراق الحديث والتي لم يثبت قدومها من الجزيرة العربية ـ بالتأكيد ـ يجب أن تكون فارسية: الموسيقى والغناء والطبخ والحرفيات والثياب والطقوس الدينية، وحتى الكلمات والأسماء (العراقية القديمة ـ السومرية ـ الآرامية) بما أنها غير عربية فهي تلقائياً فارسية[60].

إن هوس «التعريب» و«التفريس» شمل حتى المواطنين العراقيين. فكل مواطن عراقي لم تثبت أصالته العربية وأنه من أحفاد «قحطان وعدنان» فان عراقيته مشكوك بها، حتى لو كان مستوطناً في العراق منذ الف عام. ترى العراقي قد تعود أن يفعل المستحيل لكي يثبت للآخرين ليس عراقيته فحسب بل قبل كل شيء عليه أن يثبت «أصله العربي» وأنه من جد يعود الى بني «لخم أو تنوخ أو خناعة»! أفضل دليل على مدى «الأسطورية والتوهم» التي لجأ اليها العراقي خلال قرون من القسر أو الإغراء من أجل الادعاء بأي «لقب عربي أصيل»، هو هذا الكم الهائل من العوائل والعشائر العراقية التي تدعي الأصل «القريشي الهاشمي العلوي» من الذين يطلق عليهم بالعراقي «سيد شريف». الباحث «حنا بطاطو» يذكر لنا أرقاماً عجيبة عن عدد السادة في العراق والمنتشرين بين الشيعة والسنة، وبين العرب والأكراد والتركمان، وفي المدينة والريف والبادية. حتى عام 1936 كانت حصة هؤلاء «السادة» في رئاسة الوزراء قد بلغت (2,69٪)[61]. بل الطريف ان لقب «سيد شريف» فرض نفسه حتى على حزب علماني مثل الشيوعي العراقي إذ يلاحظ مثلاً أنه في عام 1956 تكونت قيادة اللجنة المركزية من ثلاثة «سادة قريشيين»، أحدهما شيعي (حسين الرضي) والثاني سني (عامر عبد الله)، والثالث كردي (جمال الحيدري)[62]! بل حالة «التعريب القريشي العلوي» جذبت حتى «الرئيس صدام»[*] الذي نشر شجرة العائلة ليؤكد ان سلالته تعود للإمام علي ابن أبي طالب! من دون أية مبالغة يمكننا بكل اطمئنان أن نقول ان عدد الذين يعتقدون بأنهم من أصل «سيد شريف» في العراق يزيد على ثلث عدد السكان!!

ان هذا الفهم العرقي «العروبي والتفريسي» للماضي العراقي شكل الأساس لرؤية الحاضر وتحديد معنى الوطن والمواطنة. صار من الطبيعي اعتبار أرض العراق وحدوده هي ارض الناطقين بالعربية فقط، أما المناطق التي يقطنها عراقيون غير ناطقين بالعربية مثل الأكراد

* الطريف أن هنالك تقولات منتشرة بين أهل الأنبار وتكريت نفسها، تدعي بأن عائلة «البيكات» التي ينتمي إليها (صدام) تعود لجذور تركمانية عراقية، مستعربة وليست عربية (قحة ونقية)!؟

والتركمان والسريان فهي مناطق غير عراقية كافية وأكيدة، وأنها قابلة للتمايز بل والتفاوض على مدى عراقيتها وحتى القبول المبدئي بحق انفصالها المستقبلي! هذا بالضبط الذي تعودنا عليه بخصوص المناطق العراقية التي يقطنها أكراد عراقيون، بالاضافة الى الطروحات المتكررة عن مخاوف تقسيم العراق الى مناطق قومية وطائفية. ان مناطق مثل كركوك واربيل والموصل التي شكلت منذ فجر التاريخ جزءاً طبيعياً وسكانياً من بلاد النهرين وعاشت طيلة تاريخها في ظل الدول الرافدية وقطنتها دائماً الجماعات العراقية خلال جميع العصور ولا زالت أسماؤها وآثارها شاهدة على عراقيتها؛ ولكن بما أن هذه المناطق غير مقطونة الآن بأغلبية عربية فإن هذا يكفي للتشكيك بعراقيتها وتبرير ضمها الى خرائط «كردستان» الكبرى التي يحلم دعاتها بالانفصال عن الوطن العراقي. كل هذا أتى من «ضعف الهوية العراقية» وضعف الشعور بالانتماء الى وطن عراقي ذي تاريخ واحد يشترك فيه جميع العراقيين مهما اختلفت انتماءاتهم الفئوية «القومية!» والمذهبية والدينية.

رعب التفريس

إن هذه «العقدة الايرانية» ظلت تُغذى من قبل النخبة الحاكمة باسم «الخطر الايراني» ومكافحة «الشعوبية» التي اتهم بها الشيوعيون والشيعة والاكراد والتركمان وجميع العراقيين اللذين تجرأ أحدهم وشكك بنقاء «الأمة العربية» أو امتدح بالصدفة أي شيء يتعلق بالفرس من بعيد أو قريب.

في أعوام الثمانينات مع اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية، وصلت حمى «التفريس» الى ذروتها وهبطت الى مستوى الابتذال الذي يخجل منه أشد القوميين المخلصين للأمة العربية. السيد خير الله طلفاح (خال الرئيس) أصدر كتابه الشهير الذي بيع إجبارياً لمعظم العراقيين وجاء فيه: «ثلاثة أشياء أخطأ الله بخلقها: الفرس واليهود والذباب»[63]. في هذا الكتاب يعتبر (طلفاح) الفرس (حيوانات متنكرة بجلد بشر)! هذه العنصرية المخجلة بسذاجتها لم تبق ضمن النطاق الاعلامي والتربوي بل تجلت على شكل قوانين بلغت حد الطعن بكرامة الانسان العراقي والعسكري بالذات، إذ أجبرته حتى على التخلي عن زوجته والتنكر لأبنائه إن كان فيهم شيئاً من الدم «الفارسي المجوسي». تصوروا عام 1981 أصدر الرئيس القرار التالي: «الزوج العراقي المتزوج بامرأة من أصل ايراني يستلم (4000) دينار اذا كان عسكرياً، و (2500) اذا كان مدنياً في حالة تطليقه من زوجته أو تسفيرها خارج العراق»[64]! وعلى هذا

الأساس دفعوا حتى الأزواج والأقارب للمشاركة بحملة تهجير لما يقرب من مليون عراقي «اتهموا» زوراً وبهتاناً بالأصل الإيراني لأنهم من أصول شيعية لا أكثر ولا أقل.

في ظل هذه الأجواء السائدة في العراق منذ أيام العثمانيين، فإن «العقدة الإيرانية» مع الزمن ظلت تزداد قوة وتأثيراً وانتشاراً بحيث أنها تغلغلت حتى في عقول المثقفين والمتعلمين الرافضين مبدئياً للطروحات القومية والعرقية. نورد هنا بعض الأمثلة المختصرة من التي نسمعها ونقرأها كل يوم بصورة «طبيعية» ويومية دون أي احتجاج أو استغراب من أحد:

ـ نستشهد مثلاً بموقف الشاعر العراقي الراحل بلند الحيدري. رغم أصالة هذا الشاعر ومواقفه الديمقراطية الصادقة ومعاناته الشخصية من الاضطهاد والقمع، إلا أن هذا لم يمنعه من الوقوع في فخ «العقدة الإيرانية» والفهم القومي العرقي للمجتمع العراقي. قام شاعرنا بحماسة غريبة بتبني ادعاءات السلطة الطائفية وأعلن في مقابلة مع (صحيفة القدس 22ـ5ـ1996)، عن خلع الهوية العراقية عن الشاعر الكبير «محمد مهدي الجواهري» واحتسبه بكل بساطة على «الفرس»!

علماً أن مشكلة «تفريس» الجواهري قديمة تعود الى أعوام العشرينات. يتحدث عنها الجواهري بإسهاب في مذكراته، يقول أنه طُرد من وظيفته كمدرس بسبب قصيدة تغزل بها بمصيف ايراني فاعتبرت قصيدة «شعوبية». ويدافع الشاعر عن نفسه قائلاً: «لقد غنيت مصايف لبنان وسوريا وفلسطين وامتدحت في شعري باريس وسواستوبول وستالينغراد وبراغ، أفهذه شعوبية؟»[65] علماً بأن المسؤول عن طرده هو أحد كبار مؤسسي التيار العروبي (ساطع الحصري) الذي كان مشرفاً على وضع نظام التربية في العراق. وكان الحصري هذا لا يتقن العربية كفاية لأن ثقافته ولغته الأم هي التركية[66]، بالاضافة الى تعصبه (العلماني العروبي) ضد الشيعة. لهذا السبب تم طرد الجواهري لأنه نجفي ومدح بعض علماء الشيعة! لكن والحق يقال، ان التعصب الطائفي لم يكن هو المسيطر تماماً على الحياة السياسية العراقية، فترى رغماً عن الحصري وأتباعه من المتعصبين أصبح الجواهري فيما بعد من المقربين جداً للملك الراحل (فيصل الأول)، والشاعر الذي يتغنى بقصائده جميع العراقيين بمختلف تياراتهم وأديانهم ومذاهبهم وفئاتهم اللغوية.

ـ في مقابلة لصحيفة (القدس 22ـ8ـ1996) مع الموسيقار العراقي (نصير شمة) ذكر حادثة تتجلى فيها بشاعة تأثير هذه «العقدة الايرانية». والحكاية أن (نصير) أراد تحقيق مشروع

(الفارابي) باضافة الوتر الثامن الى العود، وعندما علم الموسيقار العراقي (منير بشير) بهذا الأمر ولأنه مستشار في وزارة الثقافة كتب «تقريراً أمنياً خطيراً» يتهم فيه منافسهُ الشاب بالخيانة الوطنية لأنه : «يدعي (اي نصير) بأن الفارابي من صنع العود. وطالما أن الفارابي فارسي فانه هذا يعني أني أنسب أصول العود لايران.. الشيء الذي جعل من تواصلاتي موضع اتهامات يقاضي بموجبها القانون»! تصوروا مدى السذاجة التي زرعتها هذه العقدة في عقول ونفوس هؤلاء المثقفين الحكوميين. أي اطلاع على التاريخ يبين لنا جيداً بأن «الفارابي» ليس فارسياً أو ايرانياً إبداً، بل هو تركستاني من مدينة (فاراب) الواقعة حالياً في جمهورية كازخستان. لنفترض أن الفارابي كان فارسياً فما هي المشكلة؟ ثم ان اضافة وتر جديد لا يعني أبداً نفي حقيقة معروفة لجميع المهتمين بأن أول من صنع العود وعزف عليه وكتب نوطاته وحفظه وطوره ونقله الى العرب والى الفرس والأتراك وغيرهم هم العراقيون القدماء. الاثار والمنحوتات البابلية والآشورية تشهد على الأمر. الطريف في هذه الحادثة أن (منير بشير) من عائلة مسيحية عراقية وخشيته هذه من (الفرس) ليس لها مبرر (طائفي) شخصي غير التملق لمهووسي «العقدة الايرانية» السائدة.

ـ ان هذه «العقدة الايرانية» دخلت في أعماق العقلية العراقية بمستوييها الشعبي والمثقف. تصوروا أن يتجادل مجموعة من المثقفين القوميين حول مدى حقيقة «عروبة» صديقهم المثقف فلان. لأن المشكلة حسب طرحهم ان فلان من «بني تميم» وهذه العشيرة العراقية (العربية) موجودة في العراق قبل الفتح العربي بعدة قرون. على هذا الأساس فإنها يقيناً قد «تلوثت» بالدماء الفارسية بعد أن اختلطت وتزاوجت مع الفرس الحاكمين وهذا الأمر يقلل من نقاوتها العربية! الأكثر عجباً في هذه الحكاية أن هؤلاء المثقفين هاربون من جور النظام ومنفيون في بلد عربي مجاور!

ـ ان تأثير العقلية العثمانية وتهويل الخطر الايراني جعل العراق من الحالات النادرة بين أوطان الأرض، إذ تقوم الدولة باعتبار الأغلبية الساحقة من شعبها : «أجانب مشكوك بعراقيتهم ومواطنيتهم» وهم الشيعة من (عرب وفيلية وتركمان) ثم الأكراد. من الطبيعي أن ديمومة هذه المشكلة منذ قرون جعلت حتى ضحاياها يدخلون بلعبتها. فليس من المستغرب أن تجد الكثير من الاسلاميين الشيعة العراقيين والعرب من يفضل الانتماء السياسي والحضاري لايران، بل هناك من يلجأ الى اصطناع أصل ايراني ما دام قد تعلم من كتب التاريخ القومية

بأن العراقيين والعرب «بدو متخلفين» و «الفرس» هم أصحاب الحضارة. يبدو أن هذه الصورة القومية المبتذلة عن بداوة العراقيين وتحضر الفرس شائعة جداً في ايران وطالما سمعناها شخصياً من أصدقائنا الايرانيين!

بالنسبة للأكراد الذين هم أيضاً من ضحايا هذه «العقدة الايرانية» فانهم وجدوا الحل بالتخلص من أي انتماء لهؤلاء «العراقيين البدو» والبحث عن الانتماء للعرق الآري الايراني «الهندوأوروبي» أملاً بالانتساب لبعض أمجاد هذا «العرق الآري المتطور!». رداً على ادعاء العروبيين بالأصل الحجازي اليمني، فإن الأكراد بكل بساطة اصطنعوا لهم تاريخاً وأصلاً من خارج العراق بل وحتى من خارج كردستان العراق أي الأصل الميدي الايراني «الهندوأوروبي» ! هناك تيار مهم بين المثقفين الأكراد العراقيين يقوم بالمبالغة والتطرف ينفي الأصل العراقي القديم لسكان كردستان العراق الذين شاركوا في الحضارة العراقية منذ العهد السومري وحتى الآن، تشبهاً بالعروبيين قام القوميون الأكراد بصناعة أسطورة قومية اعتمدت على حجة معروفة وهي أن اللغة الكردية الحالية من أصل آري. وبناء على هذا الفهم القومي الضيق اخترعت أسطورة الأصل الميدي «الايراني» للأكراد. متناسين أن جبال كردستان العراق (الجانب الغربي من زاغاروس) مقطونة بجماعات عراقية (غير آرية) منذ سحيق الزمن[67]. وقد شاركت هذه الجماعات الأصيلة بصنع الحضارة العراقية منذ الألف الثالث قبل الميلاد، مثل الغوتيين والكاشايين والحوريين[68]. وأن تبني لغة لا يعني أبداً الانتماء العرقي لأصل هذه اللغة. فلأن معظم سكان العراق يتكلمون العربية لا يعني أبداً بأنهم منحدرون عرقياً من تلك الأقلية العربية المحاربة التي قدمت من الجزيرة العربية. من المعقول مثلاً أن يربط (أكراد ايران) تاريخهم بالأصل (الميدي) الايراني على اعتبار أن هذه الحضارة كانت في ايران بما فيها منطقة كردستان ايران الحالية. ولكن هذه الحضارة (الميدية) ليس لها أية علاقة بمناطق سكنى الأكراد في العراق، بل أن هذه المناطق الكردية العراقية ظلت دائماً جزءاً من الحضارات والدول التي قامت في العراق. أفضل مثال لنا هو منطقة أربيل، تاريخها المعلوم وآثارها وشواهدها الحالية كلها تبين أنها حملت التراث العراقي منذ السومريين والآشوريين والآراميين حتى العصر العربي الاسلامي. لا زالت حتى الآن تحتفظ باسم (اربيل) الموروث منذ العهد السومري ـ الآشوري بمعنى (أربع ايلو ـ أي الآلهة الأربعة). طيب لماذا يتخلى أكراد العراق عن تراث مناطقهم العراقية الكردية ويتمسكون عنوة بتراث ايران وأكراد ايران؟

إن هذا الفهم القومي «الميدي» لأصل الأكراد دفع بعض المثقفين الأكراد الى محاولة ربط كل ما له صلة ما باللغة الكردية بالحضارة الايرانية. مثلاً بعضهم يصر على تغيير تسمية الطائفة «اليزيدية» الى «الأزدية» واعتبارها من أصل زرادشتي، وبالتالي نفي عراقية اليزيدية[69]. متناسياً حقيقة أن هذه اليزيدية واحدة من الطوائف العراقية النادرة التي حتمت عليها ظروف التاريخ والجغرافيا لأن تجتمع فيها، بصورة رائعة، مواريث جميع الأديان العراقية : البابلية والمانوية والمسيحية والاسلام؛ بالاضافة الى مواريث الفئات اللغوية العراقية المختلفة : العربية والكردية والسريانية.

ـ هناك بعض الباحثين من يحاول أن يبذل الجهد المستحيل من أجل احتساب حتى الجماعات العراقية القديمة على الفرس مثل الصابئة، يحاول البعض تفريس أصول الديانة الصابئية وربطها بالديانة الزرادشتيه وتجاهل الأدلة الساطعة على بابلية هذه الديانة وآرامية لغتها.

ـ أما بالنسبة للتركمان فانهم يقطنون فعلياً في العراق منذ أكثر من الف عام وأصبحوا جزءاً فعالاً من سكان العراق وتاريخه. بل إن دماء الكثير من العراقيين (العرب) تحمل آثاراً من دماء التركستانيين الذين لم يتوقفوا عن الاستيطان في العراق منذ الألف الأول قبل الميلاد. لكن مع ذلك فان بعض القوميين التركمان (الطورانيين) لا يتوانون عن التنكر لأي ارتباط بالعراق والحديث عن تركيا «الوطن الأم»[70]! متناسين الحقيقة التالية المضادة لفهمهم القومي : ان الشعب التركي الحالي في تركيا ليس له أية علاقة بشعوب تركستان الآسيوية ولا يحتفظ منها بغير اللغة. باعتراف جميع الباحثين ان الشعب التركي الحالي هو خليط من سكان الأناضول القدماء من حيثيين وليديين واغريق وأرمن، بالإضافة الى البلقان والعرب والأكراد والقفقاس وغيرهم من الجماعات التي تشكلت منها الامبراطورية العثمانية خلال خمسة قرون من التمازج والاختلاط في ظل سيطرة أقلية محاربة من القبائل التركستانية التي نجحت بفرض الاسلام ولغتها التركية رغم ذوبانها البدني والحضاري في الجماعات الأخرى[71].

تجربة تركيا تمنحنا أمثلة تكشف عن مدى سذاجة الادعاءات القومية العرقية. إن (حزب الاتحاد والترقي) الذي يعتبر أول الأحزاب القومية التركية التي نبذت الانتماء العثماني الاسلامي ودعت الى «الأمة االطورانية» ونقاء العرق التركي؛ إن قادة هذا الحزب ومؤسسيه جميعهم ليس فيهم حتى واحد يحمل «الدم التركي النقي» : أولهم من أصل بولوني اعتنق الاسلام، واثنان يهود، وآخر بلغاري غجري اعتنق الاسلام، والأخير نصفه شركسي ونصفه مجري»[72].

طبعاً مثل هذا الميل للبحث عن أصول خارجية و «وطن أم» غير العراق يجد تبريره وحجته في تأكيد العروبيين على الأصل الحجازي اليمني (العدناني القحطاني) للعراقيين الناطقين بالعربية.

ـ رغم أن هذه «العقدة الايرانية» تخص العراق والعراقيين قبل كل شيء، إلا أنها أيضاً شملت «برحمتها» جميع الطوائف الشيعية في المنطقة العربية : سوريا ولبنان وشرق السعودية والبحرين والامارات وعمان واليمن. بالاستناد الى هذه العقدة تستمر تغذية تهمة «الزندقة والشعوبية والعمالة لايران» ونزع الوطنية عن أي تحرك سياسي أو فكري أو اجتماعي يقوم به الشيعة، وتبرير عزلهم واضطهادهم السياسي والاجتماعي. وهذه التهمة من الشيوع بحيث يتبناها مثقفون وسياسيون بعيدون جغرافياً ووطنياً عنها، كما في مصر والمغرب العربي حيث تخلو هذه البلدان من أية طوائف شيعية، بالاضافة الى بُعدها الجغرافي عن ايران. مثلاً لا زالت حتى الآن الكتب المدرسية الليبية تعتبر التشيع من «معتقدات الفرس السابقة.. ومأوى يلجأ اليه كل من أراد هدم الاسلام لعداوة وحقد، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشيتة وهندية..»[73]! هكذا إذن باسم النقاء العروبي يتم احتساب التشيع واليهودية والنصرانية والهندية بالاضافة الى الزرادشيتة، جميعها على الفرس! ثم يأتي المفكر المغربي (محمد عابد الجابري)، ليحتسب بكل بساطة التشيع العراقي والعربي على «الاشراق الفارسي»، واعتبر تيار التشيع في الاسلام نقيض العقلانية وممثل لما أسماه «بالعقل المستقيل»[74].

على هذا المنوال سنجد في الغالبية الساحقة من الكتب العربية التي تتطرق للشيعة باعتبارهم «فرساً مجوساً». كما يقول (الدكتور عبد الله الغريب) في كتابه الدعائي الشهير الذي مولته الحكومة العراقية، والذي طبع أربع مرات خلال بضع سنوات، وهو بعنوان (وجاء دور المجوس)، يقول هذا الدكتور : «نحن نعلم أن رفع الشيعة لشعار آل البيت وعصمة الأئمة هو في أصله معتقد مجوسي..»[75]. وكلنا نعلم أن أهل بيت النبي محمد واحفاده الأئمة هم عرب وليسوا ايرانيين! مع الشيعة، يحتسب مؤرخنا (الدكتور) على «الفرس» معظم المذاهب والحركات التي لها صلة ما بالتشيع : الدروز والنصيريين والاسماعيليين والحمدانيين (وهؤلاء كلهم في العراق والشام)، ثم الأغالبة والأدارسة والموحدين (وهؤلاء كلهم في المغرب). وخصص مؤرخنا كل مقطع من كتابه البالغ (500 صفحة) للهجوم على المذاهب الباطنية والشيعية باعتبارها كلها (فارسية خمينية)!

الكتابة الوطنية للتاريخ

إن إشكالية العلاقة التاريخية بين العراق وايران هي «العقدة الأولى» التي ظلت تواجه بناء «الهوية الوطنية العراقية» في العصر الحديث. حول هذه «العقدة الإيرانية» تمحورت جميع مشكلات الهوية الوطنية العراقية :

ـ المشكلة الطائفية وتاريخ التشيع العراقي وعلاقته بالتشيع الايراني.

ـ المشكلة الكردية وحقيقة انتماء الأكراد الى العراق.

ـ مشكلة الانتماء «القومي العربي» للعراق وموقف الفئات العراقية (غير الناطقة بالعربية) مثل التركمان والسريان والصابئة واليزيدية والفيلية.

ـ مشكلة علاقة العراق بالجارين المنافسين والمتنافسين: تركيا وايران، وتأثيرها المباشر على العلاقة التاريخية الخاصة مع سوريا وعموم الشام.

إن النخب العراقية لو نجحت منذ عقود في دراسة وتوضيح «تاريخ العلاقات الايرانية ـ العراقية» لساهمت في فك هذه «العقدة الايرانية» وبالتالي خلق الأساس لبناء هوية عراقية

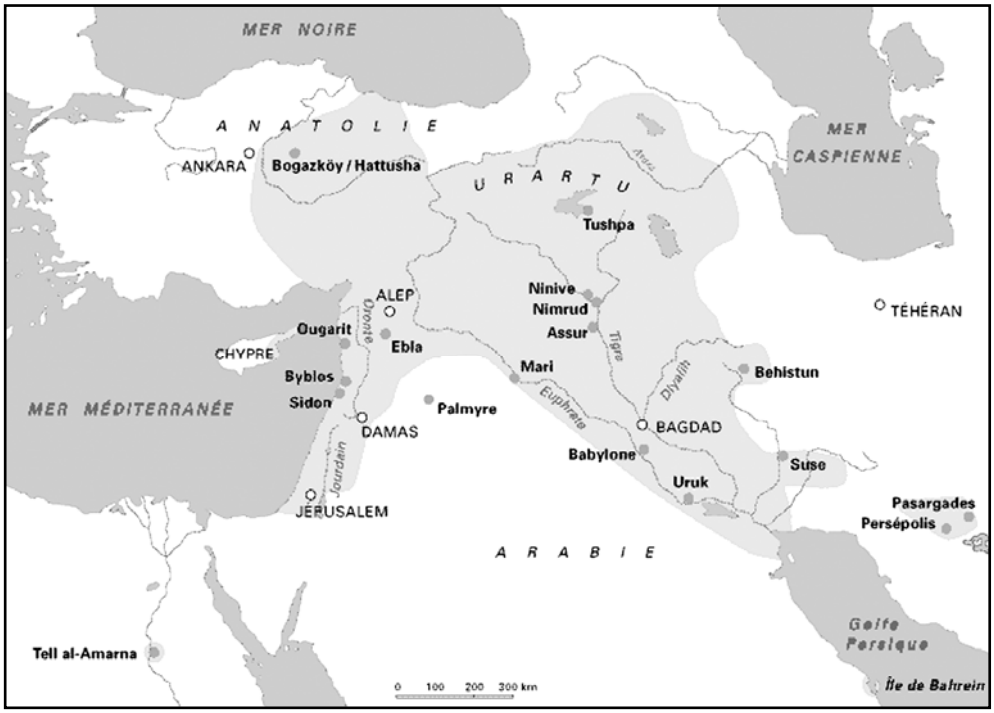

حضارة العراق وتأثيرها على عموم الشرق الاوسط..

وطنية واضحة موحدة. إن حل هذه العقدة سوف يجنب الشعب العراقي الكثير من الصراعات القومية والطائفية وعمليات التهجير والحروب الدولية ومشاريع التقسيم وغيرها من الكوارث التي نتجت عن التمزق في الانتماء الوطني والرعب التاريخي من هذا «الخطر الايراني».

إن من أول شروط بناء هوية لأي دولة وشعب، هو كتابة التاريخ الوطني بصورة تعتمد المبدأين التاليين:

1ـ عدم تقطيع التاريخ واهمال فترات منه والتمسك بفترات أخرى. ان تاريخ الأوطان مثل تاريخ الافراد، ليس من الطبيعي أبداً أن يعتقد شخص ما بأنه قد ولد منذ عشرة أعوام فقط، بينما هو في الحقيقة قد ولد منذ ثلاثين عاماً.

2ـ أن يكون تاريخ الوطن شاملاً لجميع تنوعات المجتمع. ان يتم الاعتراف باسهامات جميع الفئات اللغوية والدينية والمذهبية في صنع تاريخ الوطن. ان الهوية الوطنية الموحدة تستند أساساً على تاريخ وطني شامل وموحد يعترف به الجميع لأنه يعترف بدور الجميع في صنعه فليس الناطقون بالعربية وحدهم من صنع تاريخ العراق بل جميع الفئات.

مشكلة الهوية التاريخية العراقية تكمن في فقدان الديمومة التوحيدية لهذه الهوية. إن التاريخ العراقي مقطع ومجزأ ومشتت الى عدة فترات وأجزاء لا يربط بينها رابط. لقد تعود العراقي أن لا يشعر بأي انتماء وطني تاريخي لأية حقبة من ماضيه:

ـ بالنسبة للتاريخ العراقي السابق للاسلام، مهما افتخر به العراقي إلا أنه في أعماقه يعرف أنه ليس له أية علاقة (عرقية قومية) مع صناع تلك الحضارة السومرية البابلية الآشورية الآرامية. العراقي (العربي) تعلم خلال أجيال أن يعتبر أجداده (قحطان وعدنان) وأنه مرتبط قومياً وعرقياً بتاريخ أجداده العرب في الحجاز واليمن، وبالتالي فان علاقته بتاريخ العراق القديم علاقة رمزية لا أكثر. أما الفئات العراقية الأخرى، تشبهاً بالعروبيين فقد صنعت لها تواريخاً وأسلافاً من خارج أرض العراق (أكراد آريون ميديون) و(تركمان طورانيون أتراك). بقي (سريان) العراق هم الوحيدون الذين يشعرون بانتمائهم لتاريخ العراق السابق للاسلام. لكن المشكلة أنهم اعتبروه تاريخهم القومي الخاص بهم ولا يخص غيرهم من العراقيين. ثم أنهم خلقوا قطيعة تامة مع العصور الاسلامية باعتبارها عصور عربية اسلامية لا تخص السريان المسيحيين، رغم الاشتراك المباشر والفعال للعناصر السريانية المسيحية بصنع التاريخ الاسلامي في العراق.

ـ بالنسبة للعصور العربية الاسلامية وبالذات القرون الستة من الدولتين الأموية والعباسية في بغداد، فان العراقي كذلك تعود أن لا يشعر بأي انتماء وطني خاص بهذه الحقبة. الأمر يبدو أقرب الى المفارقة لكنها الحقيقة. ليس هناك لدى العراقي أي شعور بأن (هارون الرشيد) عراقي أو الجاحظ أو التوحيدي أو ابن حيان أو اسحق بن حنين. هؤلاء بالنسبة للعراقي «عرب» وكفى. بالتالي فانهم لا يختلفون مثلاً عن أعلام الأندلس أو مصر أو الحجاز. بل ان العراقي (مثل كل العرب) لم يهتم أبداً إن كان (الفيلسوف الكندي) مصري أو عراقي، المهم أنه عربي وليس فارسي!

هذه الحقيقة ليست مشكلة الشعب العراقي وحده بل هي مشكلة معظم الشعوب العربية. لأننا تعودنا عند قراءة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، أن تكون الأوطان غائبة بالنسبة للأعلام والشخصيات المعروفة ليس هناك غير انتماءات قبلية: (هارون الرشيد) عباسي قريشي عدناني عربي، وفلان طائي، وفلان لخمي، وفلان خزاعي، والكل يرجعون للجزيرة العربية. أما الباقون من الأعلام والشخصيات غير العربية فانهم عموماً أعاجم غرباء مهمشي الأصول: سريان أو قبط أو يهود أو بربر، وكل هؤلاء يتم احتسابهم بالتساوي مع العناصر الفارسية أو التركية أو الرومية وغيرها من العناصر (غير العربية). يمكن لمؤرخينا المعاصرين ذكر جميع الأصول الوطنية الأجنبية عدا الأصول المصرية أو العراقية أو السورية أو التونسية، خوفاً من تهمة «القطرية» ومعاداة «القومية». (ابن خلدون) لأن جده ربما العاشر أو العشرين «قحطاني من حضرموت» فانه يبقى يمانياً ولا يمكن أن يقال عنه تونسي! لا أحد يقول عن (هارون الرشيد) أنه عراقي لأنه هو وأبيه وجده وجد جده جميعهم قد ولدوا وعاشوا ونشأوا وتثقفوا في بغداد في العراق!

على عكس حال البلدان العربية، فان باقي الأوطان (غير العربية) دائمة الحضور والاعتراف من قبل مؤرخينا المعاصرين. هناك اليونان والهند وخراسان وتركستان وأرمينيا، حتى الأندلس تذكر كانتماء وطني (ربما لأنها الآن اسبانية غير عربية!) أما (ايران) فهي الوطن الأقوى والأكثر اعترافاً من قبل جميع مؤرخينا، إذ يكفي مثلاً أن يعتمد الخلفاء العباسيون على بعض الوزراء الذين (ربما يعتقد) أن فيهم شيئاً ما من أصل فارسي، حتى يتم اعتبار العصر العباسي بكامله فارسياً ايرانياً!

هكذا اذن، وضعتنا العروبة في مفارقة عجيبة غريبة: من ناحية لدينا أوطان لها حدود رسمية ودول معترف بها عربياً وعالمياً، ومن ناحية ثانية ان أوطاننا هذه بلا تواريخ متميزة.

الوطن الذي بلا تاريخ مثل الانسان الذي بلا ماض.. انه طفل ساذج جاهل فاقد للشخصية سهل الانقياد والتأثر بالآخرين. وهذا هو الحاصل فعلاً منذ بدايات هذا القرن وحتى الآن. المأساة الفلسطينية مثال واضح على مدى ضعف الهوية الوطنية التاريخية التي استثمرتها الصهيونية من أجل تبرير طرد الشعب الفلسطيني من أرضه : (ما دام الفلسطيني عرقياً عربياً فليعد الى أرض أسلافه العرب!) لنا أمثلة كثيرة من معظم الدول العربية، خصوصاً تلك التي فيها تنوع ديني ومذهبي ولغوي، والعراق أكثرها تعقيداً. اننا لم نفكر حتى الآن بكتابة تاريخ بلداننا بطريقة تحترم خصوصية واهمية ومشاركة كل بلد عربي. الاعتراف بالخصوصية الوطنية التاريخية لكل بلد عربي لا يمنع الاعتراف أيضاً بأن بلدان العالم العربي تجمعها عشرات القواسم التاريخية والجغرافية والثقافية والسكانية والسياسية. كتابة التاريخ الوطني لا تتناقض بالضرورة مع كتابة تاريخ جامع لبلداننا قادر على أن يبرز تقاربها وتشابهها وتوحدها الروحي والثقافي والسياسي والجغرافي منذ فجر الحضارة وحتى الآن. ينقصنا الاعتقاد والقبول بأن (المرحلة العربية الاسلامية) لم تنبثق من الصحراء والعدم وليست منفصلة عن المراحل التاريخية التي عاشتها منطقتنا، بل هي تتمة لمراحل حضارية وتفاعلات سكانية ودينية وثقافية مستمرة خلال آلاف السنين منذ أيام البابليين والكنعانيين والفراعنة والقرطاجيين. هناك كل الشواهد المعقولة التي تساعد على كتابة مثل هذا التاريخ الشامل المتخلص من العقدة القومية العرقية الضيقة واللاإنسانية.

بالنسبة للعراق فان القطيعة مع تاريخنا (قبل الاسلامي) عودتنا ان نتعامل مع تراثنا الشعبي واللغوي والثقافي والفني من خلال الفهم القومي الضيق والمجزأ. كل شيء لم يثبت قدومه من الجزيرة العربية فانه تلقائياً أجنبي وعلى الأغلب أعجمي فارسي: الطبخ والثياب والغناء والآلات الموسيقية والطقوس الدينية وخصوصاً الشيعية. لم يحاول أحد أن يعود الى التراث العراقي السابق للاسلام. كم تنقصنا البحوث اللغوية التي تحاول ان تجد مؤثرات اللغة (السومرية ـ الأكدية ـ الآرامية) في اللهجة العراقية الحالية. ان الجزء الكبير من مفردات اللهجة العراقية الحالية وطريقة إبدال الحروف مثل (ق تتحول ال كَ) بمعظمها من بقايا اللغة (الآرامية السريانية) الموروثة بدورها من اللغة (السومرية الأكدية).

يمكن ان نستمر على هذا الحال لنكتشف الكثير الكثير من الموروثات الفنية والأدبية والأسطورية والدينية والتقاليد الشعبية والحرفية والهندسية. الكثير من الباحثين تحدثوا عن الموروث الفارسي والهندي والعربي في حكايات الف ليلة وليلة، دون محاولة البحث عن

الموروث العراقي القديم في هذه الحكايات، بالاضافة الى موروثات الشام ومصر: أليس من المعقول مثلاً ملاحظة تأثير أسطورة كلكامش ورحلاته الشهيرة في رحلات السندباد البحري؟ نفس الشيء يمكن أن يقال عن التقاليد والطقوس (الشيعية) التي احتسبت جملة وتفصيلاً على الفرس: أليس من المعقول القيام بمحاولة الربط بين المأساة الحسينية ومأساة تموز ووسيطهما المسيح المصلوب.. ألا من رابط بين رمز المرأة المقدسة في (عشتار) و (مريم العذراء) و (فاطمة الزهراء).. هل هي صدفة أن يضيف العراقيون لقب (الزهراء) الى (فاطمة) من دون أية علاقة مع ميراث معبودتهم عشتار (إلهة كوكب الزهرة)؟

على هذا الأساس فانه أمام الباحثين العراقيين والعرب مساحات شاسعة من البحث التاريخي العقلي لم تطأها الأقلام التي ظلت بمعظمها مطوقة ومحصورة بتقاليد الفهم العرقي القومي البيولوجي الخانق للحقيقة العلمية والخيال الانساني المبدع.

طيلة دراستنا هذه تحدثنا عن إشكالية «الهوية الوطنية التاريخية». لكن بالحقيقة ثمة إشكالية أخرى معروفة لا تعني العراق وحده بل تعني جميع بلدان العالم الثالث، تتمثل بالتمزق الطبيعي في الذات الفردية والجماعية بسبب عملية التحديث والتأثيرات الحضارية الكاسحة القادمة من الغرب. ومشكلة الحداثة هذه الشهيرة بـ «عقدة الخواجة»، انها وحدها كافية للتأثير على كل تفاصيل الحياة والفكر والممارسة وخلق التمزقات الاجتماعية والتوترات السياسية. لكن «مشكلة الحداثة» هذه تصبح أعقد وأصعب عندما تحل في مجتمع يعاني أساساً من التمزق بسبب «ضعف الهوية الوطنية التاريخية».

يعني هذا ان العراق والكثير من البلدان العربية تعاني من هاتين «العقدتين» بآن واحد. ان حل «عقدة الحداثة» يتطلب الكثير من الخطوات الحياتية والتربية المستمرة والدائمة التجدد والتطبع لاشكاليات الحداثة المعقدة والمتغيرة. لكن حل «العقدة الوطنية التاريخية» أسهل بكثير، لأن الأمر لا يتطلب غير قناعة وإرادة النخبة الوطنية التي تقرر أن تكتب تاريخها بصورة انسانية ووطنية وتعيد النظر بمناهج التربية الوطنية. ان بناء «الهوية الوطنية» سوف يساعد كثيراً على مواجهة «مشكلة الحداثة» لأن «الهوية الوطنية» أشبه بالخلايا الدفاعية في ذات الوطن، إذا كانت قوية وواضحة وشاملة فانها تساعد الجسم الوطني على تجميع قواه واكتساب ثقته بنفسه من أجل مواجهة عواصف الحداثة ومتغيراتها اليومية الكاسحة للأسس الثقافية والدينية والسياسية.

ان بناء (هوية وطنية) مستقرة وواضحة تتفق عليها جميع فئات الشعب قضية شاملة وعامة تخص جميع الأوطان. معاينة سريعة لخارطة العالم تبين لنا أن الأوطان المستقرة القوية هي الأوطان التي تمكنت من انجاز مهمة بناء الهوية. ان ضعف الهوية الوطنية لأي شعب يؤدي الى ضعف الشخصية الاجتماعية والفردية وكثرة التوترات السياسية وسيادة العنف وديمومة الدكتاتورية.

ان الدافع الأول للّجوء للدكتاتورية هو ضعف القاعدة الاجتماعية للفئة الحاكمة بسبب الاعتماد على أقلية لا تمثل الا جزءاً من الشعب: تجمع عشائري أو طائفي أو ديني أو مناطقي أو سياسي، أو كلها معاً مثل حالة العراق! من أجل التعويض عن ضعف القاعدة الاجتماعية للسلطة يتم الاعتماد على الأجهزة المخابراتية والحزبية القمعية. بقدر ما تتمكن الدولة من تمثيل مختلف الفئات الدينية والمذهبية واللغوية والمناطقية بقدر ما تضطر بدرجة أقل لاستعمال القوة في ديمومة سيطرتها. ان الديمقراطية لا تقوم الا في الدولة القوية والدولة لا تكون قوية إلا بمدى قدرتها على تمثيل أوسع قاعدة من فئات الوطن، والدولة لا يمكنها ان تمثل كل تنوعات المجتمع من دون امتلاك أساس (فكري ـ تاريخي ـ تربوي) وطني وشامل متفق عليه من قبل جميع هذه التنوعات مهما اختلفت قناعاتها ومشاريعها السياسية. من دون «هوية وطنية موحدة» لا يمكن أن توجد «دولة وطنية موحدة» والا فان العنف البوليسي والحروب الخارجية هي الوسيلة الوحيدة لديمومة الدولة التي لا تستند على هوية وطنية متكاملة وموحدة.

ان الحاجة لبناء «هوية وطنية موحدة» ليس من أمور الترف والبحث عن امجاد وهمية بل هي ضرورة انسانية ملحة. أية مجموعة من البشر لا يمكن ان تمضي حياتها تعيش في رقعة واحدة وتشترك في تفاصيل الحياة اليومية من دون حد أدنى من الشعور بالانتماء لمثال أو فكرة مشتركة. حتى إن لم تكن هذه الفكرة موجودة في الماضي فانها على الأقل ستكون مشروع المستقبل. ان الشعور بالانتماء الى (ماض مشترك) يساعد على (الاشتراك في الحاضر) والاستمرار بـ (الاشتراك في المستقبل). ليس هناك فرد أو جماعة يختار طواعية عدم الارتباط ببلاده وبناس بلاده، انه أمر قاس ومتعب ان تشعر بالأجنبية والاغتراب عن أناس تتعايش معهم كل يوم وتتصل معهم في كل شؤون الحياة اليومية وتشاركهم الأرض والهواء والماء والسماء. ان الانسان الذي يشعر بالشك بحقيقة انتمائه لبلاده ولناس بلاده أشبه بالطفل الذي يشعر بالشك بحقيقة انتمائه لعائلته... كلاهما يعاني الغربة والاغتراب الى درجة قد تؤدي الى الدمار الذاتي أو الجنون. وهذا هو الحاصل فعلاً في بلداننا.

قائمة مصادر الفصل الثاني

1 ـ المطهري، آية الله مرتضى ـ الاسلام وإيران ـ 3 أجزاء. منظمة الاعلام الاسلامي ـ طهران (1390 هـ).

2 ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ 15 جزءاً ـ دار صادر ـ بيروت 1968 ـ ج 7 ص 411.

3 ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1982 ـ ص 927.

4 ـ البلاذري ـ فتوح البلدان ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ص 326.

5 ـ الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ 4 أجزاء ـ القاهرة 1961 ـ ج 3 ص 71.

6 ـ الطويلي، أحمد ـ الجاحظ ـ الشركة التونسية ـ تونس 1987 ـ ص7.

7 ـ الدوري، عبد العزيز ـ التكوين التاريخي للأمة العربية ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1986 ـ ص 86.
نشير الى أهمية الفصل الثاني الذي يتحدث بصورة معقولة رغم بعض «التفريس»، عن الموالي وعملية التعريب التي جرت خصوصاً في العراق.

8 ـ دلو، برهان الدين ـ مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي ـ دار الفارابي ـ بيروت 1985 ـ ص 166.

9 ـ نفس المصدر ـ الفصل الثامن.

10 ـ عمر، فاروق ـ التاريخ الاسلامي ـ دار اقرأ ـ بيروت 1985 ـ ص 236.

11 ـ ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ لجنة التأليف ـ القاهرة 1948 ـ ج3 ص 414.

12 ـ المبرد ـ الكامل في اللغة والأدب ـ القاهرة 1365 هـ ـ ج1 ص 314.

13 ـ الأصبهاني، أبو الفرج ـ الأغاني ـ 24 جزء ـ دار الكتب ـ القاهرة ـ 1974ـ ج 14 ص 288.

14 ـ ابن منظور ـ مصدر سابق ـ مادة عرب.

15 ـ فيصل، شكري ـ المجتمعات الاسلامية ـ دار العلم ـ بيروت 1981 ـ ص 111.

16 ـ ابن النديم ـ الفهرست ـ مكتبة خياط ـ بيروت ـ ص 201 وبعدها.

17 ـ الشرقاوي، عبد الرحمن، أئمة الفقه التسعة ـ دار غريب ـ القاهرة 1995 ـ ص 56.

18 ـ عن الأئمة يمكن مثلاً مراجعة نفس المصدر السابق.

19 ـ هويدي، فهمي ـ ايران من الداخل ـ مركز الأهرام ـ القاهرة 1988 ـ ص 20 ـ 21.

20 ـ نوار، عبد العزيز ـ دار النهضة ـ بيروت 1973 ـ الفصل السابع، كذلك المصدر رقم 53.

21 ـ جانو، أسيمة ـ التاج الايراني ـ مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1987 ـ ص 43.

22 ـ ماسينيون ـ خطط البصرة ـ المؤسسة العربية ـ بيروت 1981 ـ ص 28 ـ 50.

23 ـ فيصل، شكري ـ مصدر سابق ـ ص 206.

24 ـ عمر، فاروق ـ مصدر سابق ـ ص 132.

25 ـ عن تاريخ ايران وسلالاتها الحاكمة، يمكن مراجعة الموسوعة الكونية الفرنسية والموسوعة الاسلامية ـ مادة ايران.

26 ـ العلوي، هادي ـ شخصيات غير قلقة ـ دار الكنوز ـ بيروت 1995 ـ فصل 14.

27 ـ معروف، ناجي ـ عروبة العلماء المنسوبين الى البلاد الأعجمية ـ وزارة الثقافة ـ بغداد 1978 ـ 3 أجزاء ـ ج 1 ص 97.

28 ـ الترمانيني، عبد السلام ـ أزمنة التاريخ العربي ـ الكويت 1982 ـ ص 936.

29 ـ حتي، فيليب ـ تاريخ العرب ـ دار غندور ـ بيروت 1990 ـ ص 359.

30 ـ حتي، فيليب ـ موجز تاريخ الشرق الأدنى ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ص 167.

31 ـ فيصل، شكري ـ مصدر سابق ـ ص 82 ـ 83.

32 ـ أيوب، ابراهيم ـ التاريخ العباسي ـ الشركة العالمية ـ بيروت 1989 ـ ص 216.

33 ـ فيصل، شكري ـ مصدر سابق ـ ص 233.

34 ـ عن الترجمة من الفارسية، راجع مثلاً :

ـ ابن النديم ـ مصدر سابق ـ 244.

ـ عبد الباقي، أحمد ـ معالم الحضارة العربية ـ مركز دراسات الوحدة ـ بيروت 1991 ـ الفصل الخامس.

35 ـ قنواتي، جورج ـ المسيحية والحضارة العربية ـ المؤسسة العربية ـ بيروت ـ ص 103.

36 ـ أيوب، ابراهيم ـ مصدر سابق ـ ص 211.

37 ـ بخصوص الوضع الحضاري للمنطقة قبل الفتح مباشرة، راجع مثلاً :

ـ حتي، فيليب ـ تاريخ سوريا ـ دار الثقافة ـ بيروت 1972.

ـ النشا، مصطفى ـ نحو تاريخ جديد للفلسفة القديمة ـ وكالة زوم برس ـ القاهرة 1992.

ـ دمشقية، غسان ـ لاهوت التحرير ـ دار الأهالي ـ دمشق 1990.

ـ الجابري، محمد عابد ـ بنية العقل العربي ـ المركز الثقافي ـ الدار البيضاء 1986 (القسم الثاني فصل خاص بالعرفانية).

38 ـ عن تاريخ بلدان المغرب :

ـ غوتيه ـ ماضي شمال افريقيا ـ دار ف ـ لندن 1983.

ـ المدني، أحمد ـ قرطاجنه في اربعة عصور ـ المؤسسة الوطنية ـ الجزائر 1986.

39 ـ عن وضع سريان العراق :

ـ بيغوليفسكا، نينا ـ ثقافة السريان ـ دار الحصاد ـ دمشق 1990.

ـ أبونا، الأب البير ـ تاريخ الكنيسة السريانية ـ 3 أجزاء ـ دار المشرق ـ بيروت 1992 (ص 126 عن الملكة شيرين).

40 ـ عن المانوية، راجع مادة (Manicheisme) في إحدى الموسوعات العالمية.

ـ ابن النديم ـ مصدر سابق ـ ص 318.

41 ـ الزيات، أحمد ـ تاريخ الأدب العربي ـ دار الثقافة ـ بيروت 1978 ـ ص 234.

42 ـ BOTTERO Jean-Initiation aL'Orient ancient-Seuil- Paris 1992 p 25-35

43 ـ حتي ـ تاريخ العرب ـ مصدر سابق ـ ص 319.

44 ـ شريف، محمد ـ القادسية الكبرى ـ دار الجيل ـ القاهرة 1984 ـ ص 116.

45 ـ دلو ـ مصدر سابق ـ ص 196.

46 ـ زيدان، جرجي ـ المؤلفات الكاملة ـ دار الجيل ـ بيروت 1983 ـ مجلد 12 ص 356.

47 ـ الترمانيني ـ مصدر سابق ـ ص 973.

48 ـ أمين، أحمد ـ فجر الاسلام ـ الهيئة المصرية ـ القاهرة 1996 ـ ص 191.

49ـ حتي ـ موجز تاريخ الشرق ـ مصدر سابق ـ ص 186.

50 ـ الريحاني، أمين ـ ملوك العرب ـ مجلد4 ـ ص 36.

51 ـ ماسينيون ـ مصدر سابق ـ ص 71.

52 ـ فريحة، أنيس ـ دراسات في التاريخ ـ منشورات جروس ـ طرابلس 1991 ـ ص 121.

53 ـ الوردي، علي ـ تاريخ العراق الحديث ـ 8 أجزاء ـ كوفان للنشر ـ لندن 1991 ـ الجزء الأول (المقدمة والفصل الأول).

54 ـ الوردي ـ نفس المصدر ـ ج 2 ص 259.

55 ـ زين، نور الدين زين ـ نشوء القومية العربية ـ دار النهار ـ بيروت 1979 ـ ص 86 ـ 87.

56 ـ نفس المصدر ـ ص 74.

57 ـ عن شيعة مكة والمدينة، راجع :

ـ الخليلي، جعفر ـ موسوعة العتبات المقدسة ـ قسم المدينة المنورة ـ دار التعارف ـ بغداد 1970 ـ ص 257.

ـ الهاجر، يوسف ـ البقيع ـ مؤسسة البقيع ـ بيروت 1990.

58 ـ BABKAHAN AL-IRAK (1970-1990) P 41

59 ـ بطاطو، حنا ـ العراق ـ الكتاب الأول ـ مؤسسة الأبحاث ـ بيروت 1990 ـ ص 205 ـ 221.

60 ـ ماسنيون ـ مصدر سابق ـ لاحظ «تفريس» ابراهم السامرائي للتسميات الآرامية الشائعة في البصرة ـ ص 74 ـ 78.

61 ـ بطاطو ـ مصدر سابق ـ الكتاب الأول ـ ص 242 ـ راجع خصوصاً الفصل الأول السابع عن «السادة» أنه من أغنى وأطرف فصول الكتاب.

62 ـ نفس المصدر ـ الكتاب الثالث ـ ص 13 و 313.

63 ـ مصدر رقم (58) ص 83.

64 ـ نفس المصدر ـ ص 104.

65 ـ الجواهري، محمد مهدي ـ ذكرياتي ـ دار النهرين ـ دمشق 1988 ـ ص 163.

66 ـ نفس المصدر ـ ص 147.

67 ـ حول نظريات أصل الأكراد، راجع مثلاً :

ـ الحاج، عزيز ـ القضية الكردية في العشرينات ـ المؤسسة العربية ـ بيروت 1984 ـ ملحق تعريفي.

ـ الموسوعة الاسلامية باللغة الفرنسية أو الانكليزية ـ مادة (KURDE).

68 ـ عن دور الشعوب القادمة من زاغاروس في تاريخ العراق القديم، راجع أي كتاب عن تاريخ العراق، مواد : (غوتيون، كاشيو، حوريون) منها مثلا :

ـ دلو ـ مصدر سابق.

كذلك :

ROUX GEORGES - LA MESOPOTAMIE-SEUIL- PARIS 1985

69 ـ راجع مثلاً :

جريدة المؤتمر العراقية ـ لندن ـ عدد 57 ـ 1996 ـ مقالة (سامي شورش) عن اليزيدية.

70 ـ راجع مقالتنا عن (الهوية العراقية) ـ جريدة القدس 23ـ 2ـ 1995.

71 ـ فارج، فيليب ـ المسيحيون واليهود في التاريخ العربي والتركي ـ سينا للنشر ـ القاهرة 1994 ـ الفصل السادس.

72 ـ زين ـ نشوء القومية ـ مصدر سابق ـ ص 86.

73 ـ هويدي، مصطفى علي ـ تاريخ الوطن العربي وحضارته ـ اللجنة الشعبية للتعليم ـ ليبيا 1993 ـ ص 233.

74 ـ راجع الرد الجيد والمفصل في كتاب :

ـ طرابيشي، جورج ـ مذبحة التراث ـ دار الساقي ـ بيروت 1993 ـ ص 73 ـ 129.

75 ـ الغريب، عبد الله ـ وجاء دور المجوس ـ بلا دار نشر ـ طبعة رابعة 1985 ـ ص 56.

التشيع العراقي، وريث أديان النهرين

ثمة اصرار غريب من قبل ورثة التشويه الطائفي العثماني على اعتبار التشيع حالة فارسية أولاً وأخيراً. والحقيقة التي أشرنا اليها سابقاً ان الهدف الأول والأخير من كل عملية التشويه والتفريس التي جرت لكل تاريخ العراق منذ سقوط بابل وحتى الآن، هو: «تفريس الشيعة» ونفي الانتماء الوطني عنهم خدمة لأهداف الدولة العثمانية في صراعها ضد ايران الشيعية. ولقد نجح هؤلاء القوميون المتعثمنون في غايتهم خير نجاح. لكنهم لسذاجتهم وانقيادهم للميراث العثماني الطائفي، لم يدركوا انهم بعملهم هذا قاموا بتقطيع الوطن وتاريخه وهويته الجامعة، وهم هيأوا بذلك لعزل الدولة عن الأغلبية الساحقة من مواطنيها ودفعها لممارسة الدكتاتورية كوسيلة وحيدة لتعويض فقدان القاعدة الاجتماعية الممثلة لكل مكونات الأمة العراقية.

إن معرفة جذور التشيع العراقي تتطلب البحث في تاريخ المجتمع الذي صنع هذا التشيع. لو أخذنا نماذج من الحواضر المعروفة التي شكلت وتشكل حتى الآن مراكز التشيع في العراق، لاكتشفنا ان التشيع العراقي نشأ وترعرع في بيئة عراقية أصيلة بعيدة عن المؤثرات الفارسية المزعومة. وان التشيع العراقي ما هو إلا خلاصة لتراكم التجارب الدينية في بلاد النهرين منذ ديانة الكواكب السومرية السامية حتى المانوية البابلية والمسيحية النسطورية العراقية.

مثلاً، مدينة «النجف» المرتبطة بحاضرة الحيرة والكوفة، هذه المدينة تقع ضمن منطقة بابل الكبرى حاضرة النهرين التاريخية والتي ظلت مقدسة لدى العراقيين حتى بعد دمارها. لهذا أطلق النساطرة تسمية (كنيسة بابل) على كنيستهم الكبرى وكذلك فعل المانوية. لقد ورث الشيعة هذا التقديس لبابل وعبروا عنه من خلال اختيارهم للنجف كمركز للمرجعية العليا والحوزة العلمية الأولى. لم يكن صدفة أن يكون قبر الامام علي في النجف، وهو الذي اختار الكوفة (المحاذية تماماً للنجف وبابل) عاصمة للخلافة الاسلامية. ان تأثير ميراث بابل في الشيعة ليس افتراضاً سطحياً، بل هناك دلائل كثيرة تؤكد هذا نورد منها على سبيل المثال : حسب ياقوت الحموي في (معجم البلدان) ان الشيعة يعتقدون أن النبي ابراهيم أتى

من بابل واشترى النجف وقال أنه سيُحشر مع أولاده في ذلك الموضع سبعون ألف شهيد[1].
إن طقوس عاشوراء تذكر بطقوس أهل النهرين بالاحتفال بغياب تموز في ظلمات الأرض، ثم بطقوس النساطرة بالاحتفال بذكرى صلب المسيح، وطقوس المانوية بالاحتفال بصلب ماني البابلي. أليس عاشوراء مقتبس من اسم عشتار امرأة تموز. في عاشوراء «كانت النساء يمشين بشعور منشورة وأوجه مسودة وملابس ممزقة يلطمن الخدود ويولولن حزناً على الحسين الشهيد»[2]، ونساء بابل كن يفعلن نفس الشيء حزناً على هبوط تموز الى العالم السفلي. و«عاشوراء كان يُعرف بكونه اليوم الذي تسقط فيه أول مطرة في السنة، والذي خلق فيه آدم وحواء والسماء التاسعة، ومنحت فيه الرسالة المقدسة لأرواح العشرة آلاف رسول»[3].

الذي يؤكد لنا أيضاً أن حواضر الشيعة المعروفة لم تكن فارسية رغم سيطرة الفرس على العراق لعدة قرون بل كانت عراقية بناسها ولغتها وديانتها، ان هذه الحواضر كانت مراكز مسيحية نسطورية قبل الاسلام وظلت كذلك خلال عدة قرون بعد الاسلام. لو أخذنا النجف مثلاً فإن هذه المدينة ظلت لقرون بعد الاسلام تزخر بالنشاط النسطوري السرياني. المصادر التاريخية تتحدث عن وجود عدة أديرة مسيحية في النجف : الحريق، الاسكون، هند، عبد المسيح، العذارة، مارت مريم، ودير حنا الكبير وغيرها من الأديرة[4]. ويذكر الشابشتي: «أن النصارى يخرجون يوم عيدهم (السكورة ــ أي الشكورة من السرياني) الى القبة في أحسن زي، عليهم الصلبان، بأيديهم المجامر، والشماسة والقسان معهم يقدسون على نغم واحد متفق الألحان ويتبعهم خلق كثير من متطربي المسلمين وأهل البطالة..»[5].

وكانت النجف المرتبطة بحاضرة الحيرة والكوفة معروفة بحسن حاناتها وجودة خمرتها، بحيث أنه يحكى أن الخليفة الوليد بن يزيد أتى من دمشق عبر صحراء السماوة مخصوصاً ليتذوق خمرة النجف والحيرة. وكان في الحيرة أربع حانات شهيرة، هي حانة عون، وحانة دومة (وهي سيدة مسيحية معروفة تغزل بها اسحاق الموصلي وأبو نواس)، ثم حانة شهلاء اليهودية، وكان حنين الحيري وهو نصراني من أشهر مطربي الحيرة وله أغان عن النجف (النجاف بالسرياني)[6].

أما سامراء (شمال بغداد) حاضرة الشيعة المهمة، فانها كانت كذلك منطقة مسيحية تحتوي العديد من الأديرة: سامراء، مار ماري، السوسي، باشهر، عبدون، صباعي، العذارى،

العلث، مارجرجيس[7]. واسم (سامراء، أو شامرا) هو اسم آرامي قديم وليس له علاقة بـ «سر من رأى» حسبما أشيع فيما بعد. إن دير سامراء الموجود منذ القدم قد اشتراه المعتصم وكون حوله مدينته وحول الدير الى مركز بيت المال[8]. وكان أسقف سامراء زمن الخليفة المتوكل هو «قيوم»، وفي زمن المعتمد اسمه «ايشو عزخا». لقد استمرت الأسقفية في سامراء حتى زمن المغول، وفي زمن اباقاخان ابن هولاكو كان مطران سامراء ابن «بريخشوع». ولقد لعب الآراميون دوراً في بناء سامراء ونقل تراثهم الهندسي البابلي، فان مأذنة سامراء الشهيرة (الملوية) التي بُنيت زمن المتوكل قد أشرف على بنائها المهندس دليل بن يعقوب النصراني[9] الذي استوحاه من الزقورات السومرية البابلية.. نضيف الى هذا ان أسماء الغالبية الساحقة من المدن والقرى العراقية (كذلك مدن وقرى الشام)، هي أسماء آرامية: مثل الكوفة (من نهر الكوثا)، وكربلاء (كرب ايل ـ خربة الله ـ خربة بمعنى قرية كما هو شائع حتى الآن في الشام). نفس الشيء بالنسبة لمعظم المدن العراقية: بعقوبة وديالى والبصرة (بصريانا) وميسان والمدائن ونينوى وتكريت وكركوك واربيل (اربع ايل)..

أخيراً، يمكننا تسجيل بعض الملاحظات التي تدل على علاقة التشيع بالأديان العراقية والسامية السابقة:

- تكرار الرقم (12) المقدس: الابراج البابلية (12)، تلاميذ المسيح وكذلك تلاميذ ماني (12)، والأئمة المقدسين لدى الشيعة (12).
- ذكرى غياب تموز في ظلمات الأرض، وذكرى صلب المسيح وصلب ماني البابلي، وذكرى استشهاد الحسين.
- تقديس الإلهة عشتار رمز كوكب الزهرة، وتقديس مريم العذراء، وتقديس فاطمة ومنحها لقب «الزهراء ـ من كوكب الزهرة رمز عشتار»، كذلك لقب «البتول» وهوكذلك لقب مريم البتول ـ أي الطاهرة.
- عودة الإله تموز كل عام رمز الربيع والخصب، وعودة المسيح المرتقبة لدى جميع الساميين بما فيهم المسلمون وخصوصاً الشيعة. وعودة المهدي المنتظر لدى الشيعة (الإمام الغائب)، وهذا المهدي يطلق عليه العراقيون بما فيهم السنة (الخضر).

أخيراً، فكرة البناء الهرمي للمؤسسة الدينية ومراتب رجال الدين المتصاعدة والتي نجدها مشابهة تماماً لنظام الكنيسة النسطورية والكنيسة المانوية.

يمكن للباحث المتخصص أن يلاحظ الكثير الكثير من التفاصيل التي ورثها التشيع، كما الاسلام بصورة عامة من أديان وثقافات الهلال الخصيب (العراق وسوريا) باعتبار هذه المنطقة هي الأقرب الى مكة والعرب جغرافياً ولغوياً وحضارياً، وفيها تكونت أولى وكبرى الحواضر العربية الاسلامية مثل دمشق والكوفة وبغداد. طبعاً لا يمكن نكران تأثير الأديان والثقافات الايرانية والمصرية والهندية والاغريقية والمغاربية والأندلسية التي أسهمت بدرجات مختلفة في صنع هذه الحضارة الاسلامية العالمية.

قائمة المصادر

1ـ الخليلي، جعفر ـ موسوعة العتبات ـ قسم النجف ـ ج9ـ ص 68ـ دار المعارف ـ بغداد ـ 1965.

2ـ نفس المصدر ـ قسم كربلاءـ ج1ـ ص373.

3ـ نفس المصدر.

4ـ مصدر (1) ـ ص 27ـ57.

5ـ نفس المصدر ـ ص 53.

6ـ نفس المصدرـ ص40ـ57.

7ـ نفس المصدر ـ قسم سامراءـ ص29ـ74.

8ـ نفس المصدر ـ ص 15.

9ـ نفس المصدر ـ ص89.